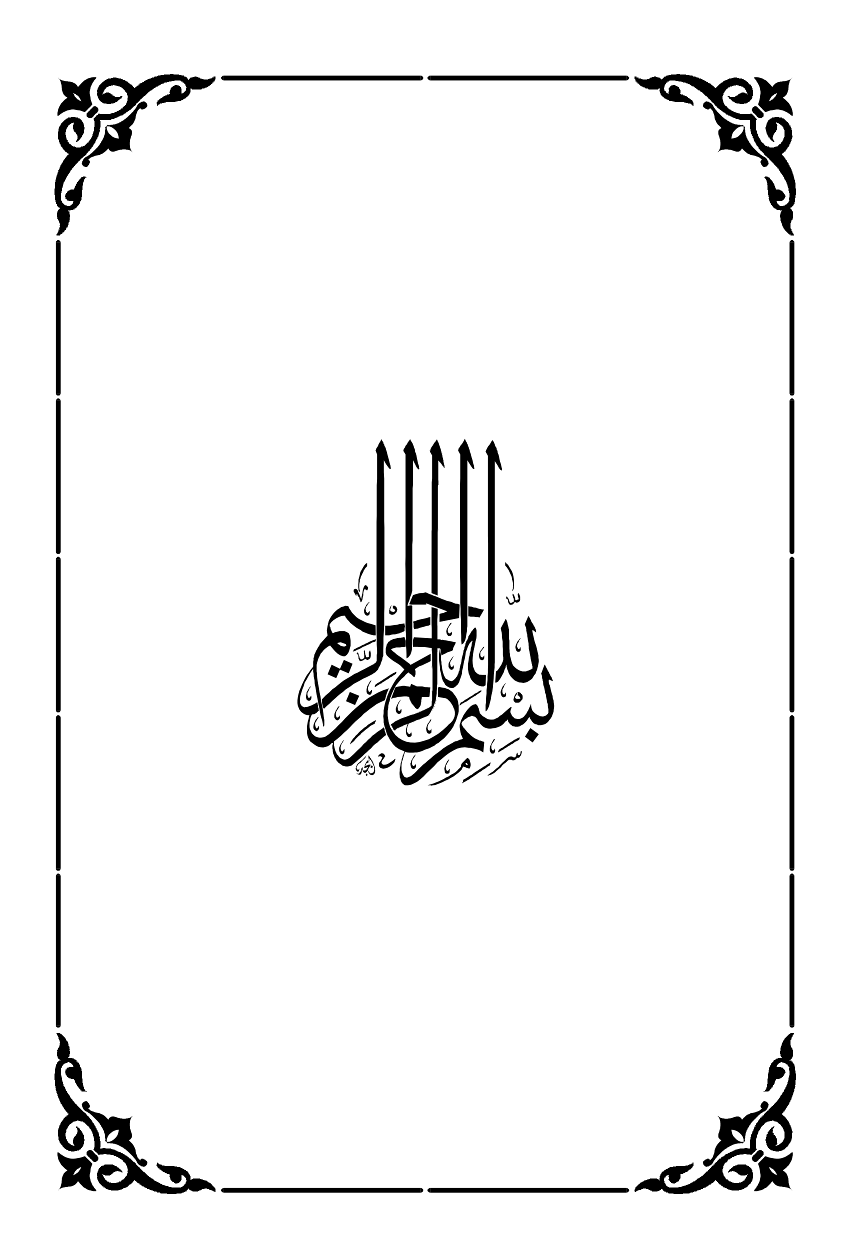
الغـــزالـــي

الطبعة الأولى



المقدمة

الحمد لله خالق المصنوعات، وبارىء البريات ، ومدبّر الكائنات، ومعرّف الألسُن الناطقات ، مفضل لغة العرب على سائر اللغات ، المكرِّم علمائه بفسيح الجنات ، وصل وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكفّر بها عنّا السيّئات ، وأذقنا لذة تجلي اللذات ، وأدمها علينا ما دامت الأرض والسموات.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» ، ثم قال ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في حجرها ، وحتى الحوت ليُصلُّون على معلم الناس الخير».

أما بعد:

فإن هذا الكتاب هو جزء من كتاب: «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» ، ويتضمن هذا

الكتاب سيرة جهبذ من جهابذة العلماء: الإمام الغزالي، فلقد كان صاحب القدح المعلى في الوقوف أمام هذا التغلغل الباطني.

وترجمت للإمام الغزالي الذي كان من كبار الأساتذة في المدارس النظامية التي كانت من خير ما اهتدى إليه العقل البشري للتفرغ للعلم وفق معطيات ذلك العصر، وكانت «النظاميات» من أفضل الوسائل لنشره وتعميمه وتحقيق الأهداف التي رسمها نظام الملك من سيادة الكتاب والسنة وعقيدة أهل السنة والجماعة على الدولة والأمة الإسلامية، وتحدثت عن اجتهاده في طلب العلم، وملازمته إمام الحرمين، وتعيينه مدرساً على نظامية بغداد، وعن أسباب نبوغ الغزالي وشهرته والتحول الكبير الذي غيَّر مَجْرى حياته وعَوْدته للتصدي للتعليم، والترتيب الزمني لمؤلفاته، وموقفه من الشيعة الباطنية، وموقفه من الفلاسفة والفلسفة وعلم الكلام والتصوف، ومنهجه الإصلاحي وصفات هذا المنهج، وتشخيصه لأمراض المجتمع وتكلمت عن ميادين الإصلاح عنده، ووضعه للمنهاج الجديد للتربية والتعليم، وبناء العقيدة الإسلامية، وإحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونقد سلاطين الظلمة والدعوة للعدالة الاجتماعية، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة؛ وأشرت إلى دوره في إصلاح الفكر، كدور العقل، ورفض التقليد، والدعوة إلى الكتاب والسنة والالتزام بمنهج السلف وعن موقفه من الاحتلال الصليبي.

وأخيراً أحمد الله على نعمه وأرجو من المولى عز وجل أن يكون

هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وذخراً لي في ميزان حسناتي ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

د. علي محمد محمد الصَّلاَّبي

❑ ❑ ❑

الإمام الغزالي
من كبار علماء المدارس النظامية

أولاً : اسمه ونسبه ونشأته :

١ ـ اسمه ونسبه :

الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، زين العابدين أبو حامد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، الشافعي ، الغزالي ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط[1] . وقد نسبه البعض إلى غزالة ـ بتخفيف الزاي ـ وهي بلدته التي ولد فيها ، وهي نسبة صحيحة من حيث اللغة ، والبعض نسبه إلى الغزَّالي ـ بتشديد الزاي ـ نسبة إلى الغزّال حرفة والده التي كانت يكتسب منها ، وهي نسبة صحيحة أيضاً من حيث اللغة .

٢ ـ نشأته ومولده :

ولد بـ (طوس)[2]، سنة خمسين وأربعمئة هجرية ، وأما والده ، فقد كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده، حيث كان يغزل

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣) .

(٢) طوس : مدينة بخراسان تقع شمال شرق إيران ، وتسمى الآن بشهر .

الصوف ويبيعه في دكانه بطوس ، وكان يختلف في أوقات فراغه إلى مجالسة العلماء ، ويطوف عليهم ويتوفر على خدمتهم ، ويجدّ في الإحسان إليهم والتفقه بما يمكنه عليهم ، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ابناً يجعله فقيهاً وواعظاً ، فرزقه الله بولدين هما أبو حامد ، وأخوه أحمد[١] . غير أن الأقدار لم تمهله حتى يرى رجاءه قد تحققت ودعوته قد استجيبت ، فقد توفي وما يزال أبو حامد صغيراً لم يبلغ سن الرشد . أما أم (أبي حامد) فقد عاشت حتى شهدت بزوغ شمس ابنها في سماء المجد ، وتبوأه أكبر مركز علمي في ذلك العهد[٢] .

وكان والده قد أوصى به وبأخيه إلى صديق له متصوف من أهل الخير ، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط ، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين ، فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه بهما ، فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلىٰ أن فنيَ ذلك النَّزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد لا مال لي فأواسيكما به ، وأَصْلَحُ ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ، ففعلا ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما ، وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا

(١) وفيات الأعيان (١/ ٢٠٧) ، التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، ص ٤٦ .
(٢) طبقات الشافعية (٦/ ١٩٣ ، ١٩٤) بتصرف .

العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله[١] .

٣ ـ اجتهاده في طلب العلم :

قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده طوس على أستاذه أحمد بن محمد الرازكاني[٢] ، وكان أستاذه الأول بها يوسف النساج ، وبعد تناول الغزالي لهذا القدر اليسير من الفقه في بلدته ، يشد الرحال إلى جرجان ، حيث يلتقي بأستاذه أبي نصر الإسماعيلي ، ويدون ما يسمعه منه كمرحلة أولى من التلقي والتعليم ، ثم يرجع إلى طوس وفي أثناء رجوعه حدث له ما جعله يحفظ ما كتب ، ويفهم ما علم ، وفي هذا يقول : قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معي ، ومضوا فتبعتهم ، فالتفت إلي مقدمهم ، وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت ، قلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه ، أن ترد عليّ تعليقتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك ، وقال : كيف تدَّعي أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة ، قال الغزالي : هذا منطق أنطقه الله ليرشد به أمري ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث

(١) الإمام الغزالي ، صالح الشامي ، ص ١٩ .
(٢) الرازكاني : نسبة إلى بلدة صغيرة بنواحي طوس .

سنين ، حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي[١] .

٤ ـ ملازمته إمام الحرمين :

قدم الغزالي نيسابور ، وهي عاصمة السَّلجوقيين ، ومدينة العلم بعد بغداد ولازم إمام الحرمين ـ وهو من عرفنا شخصيته وجلالته في العلم والتدريس ـ وجدّ واجتهد حتى برع في المذهب ، والخلاف ، والجدل ، والأصول ـ وكانت العلوم السائدة في عصره ـ فأعجب إمام الحرمين بذكائه وغوصه على المعاني الدقيقة ، واتساع معلوماته ، فكان يقول : الغزالي بحر مغدق[٢] . وفاق أقرانه وهم أربعمئة حتى أصبح معيداً لأستاذه ونائباً عنه[٣] ، وقيل : إنه ألف المنخول ، فرآه أبو المعالي ، فقال : دفنتني وأنا حيٌّ ، فهلا صبرت الآن ، كتابك غطَّى على كتابي[٤] .

٥ ـ تعيينه مدرساً على نظامية بغداد :

ولما مات إمام الحرمين عام (٤٧٨ هـ) ، خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك ، وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من سِنّه ، وقد ظهر فضله وذاع صيته ، وكان مجلس الوزير مجمع أهل العلم ، وملاذهم ، وكانت المجالس حتى المآتم لا تخلو من

---

(١) الإمام الغزالي ، صالح أحمد الشامي ، ص ٢٠ .
(٢) طبقات الشافعية (٦/ ١٩٥) ، التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، ص ٤٧ .
(٣) رجال الفكر والدعوة (١/ ١٧٢) .
(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٣٥) .

المناظرات الفقهية ، والمطارحات الكلامية ، فناظر الغزالي الأئمة العلماء في مجلس نظام الملك ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ، وتلقَّاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل ، وولّاه تدريس مدرسته النظامية ببغداد ، وكان ذلك غاية ما يطمح إليه العلماء ، ويتنافسون فيه ، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمئة ، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وقلَّما تقلَّد هذا المنصب الرفيع عالم وهو في هذه السن ، درّس الغزالي بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه ، وكمال فضله ، وفصاحة لسانه ، ونُكَتَهُ الدقيقة ، وإشاراته اللطيفة ، وأحبُّوه[1].

قال معاصره عبد الغافر الفارسي: وعلت حشمته ودرجته في بغداد ، حتى كانت تغلب حشمه الأكابر ، والأمراء ، ودار الخلافة[2] ، وكان يقرأ عليه جمٌّ غفير من الطلبة المحصِّلين ، يقول في (المنقذ من الضلال) في وصف حاله والنظامية: وأنا ممنُوٌّ بالتدريس والإفادة لثلاثمئة نفس من الطلبة ببغداد[3]. وأخذ في تأليف الأصول ، والفقه ، والكلام ، والحكمة[4].

٦ ـ من أسباب نبوغ الغزالي وشهرته:

تجمعت عدة عوامل كانت سبباً في نبوغ الغزالي وشهرته ؛ منها:

(١) طبقات الشافعية (٤/ ١٠٦).
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ١٧٣).
(٣) المنقذ من الضلال ، ص ٨٥.
(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ١٧٣).

ـ نشأته العلمية: فقد كان شغوفاً بالعلم ، باحثاً عن اليقين ، وعن حقائق الأمور ، ودرس علوم عصره ، ونبغ فيها ، وفاق أقرانه.

ـ ما كان يتمتع به من حافظة قوية.

ـ ما كان يتمتع به من شدة الذكاء ، فقد كان شديد الذكاء ، سديد النظر ، مفرط الإدراك ، بعيد الغور ، غواصاً على المعاني الدقيقة.

ـ تدريسه بالمدرسة النظامية التي أنشأها السلاجقة لتعليم مبادئ أهل السنة ، هذه العوامل كانت من أسباب شهرته[١].

٧ ـ التحول الكبير الذي غير مجرى حياته:

بلغ الغزالي في تلك الأيام قمة المجد ، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة ، أتته بالمال والشهرة ، وذيوع الاسم ، كما أتته بالجاه ونفوذ الكلمة ، واستمتع بذلك كله ، ومع ذلك لم ينقطع عن طلب العلم ، فطالع العلوم الدقيقة والكتب المصنفة فيها. مما كان له كبير الأثر في التحول الكبير الذي غير مجرى حياته ، فيما بعد[٢].

ولنترك للإمام الغزالي الحديث ، فهو خير من يشرح لنا قصته في هذا التحول: ابتدأت بمطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد. . ، فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق

(١) التصوف بين الغزالي وابن تيمية ، ص ٥٠.
(٢) الإمام الغزالي ، صالح الشامي ، ص ٢٣.

إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعليم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد ظهر عندي : أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكفِّ النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالي : فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأني أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال ، فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً ، وأؤخِّر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا وتحمل عليها جنود الشهوة جملة فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد؟! وإن لم تقطع هذه العوائق فمتى تقطع؟! ، فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ، ويقول : هذه

الحال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيض ، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليك نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليَّ ، فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة. . ، ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب[١].

وغادر الغزالي بغداد في شهر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمئة ، فحج وتوجه إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، قضى بعضها في بيت المقدس ، وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة ، ورياضة ومجاهدة للنفس ، واشتغالاً بتزكيتها ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار[٢].

ويصف معاصره عبد الغافر انقلابه هذا ، فيقول: وسلك طريق

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص ١٣٩ ـ ١٤٣.

(٢) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٢٥.

الزهد والتأله ، وترك الحشمة ، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج عما كان فيه . . وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمائل . . ، فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس ، وكرم الأخلاق ، والفراغ عن الرسوم والترتيبات ، وتزيا بزي الصالحين ، وقصر الأمل . . ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية[١] ، وأخذ في التصانيف المشهورة مثل : إحياء علوم الدين ، والكتب المختصرة منه ، مثل : الأربعين ، وغيرها من الرسائل ، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم[٢] .

٨ ـ عودته للتصدي للتعليم :

ثم عاد بعد تلك العزلة التي استمرت عشر سنوات إلى بلده طوس ، ليتابع عزلته سنة أخرى . وتحت إلحاح الولاة ، وتكرار طلبهم بالخروج إلى الناس . . خرج إلى نيسابور ليدرس بالمدرسة النظامية فيها ، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة (٤٩٩ هـ) ، وقال في ذلك : ويسر الله الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمئة ، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة[٣] ، ويشرح لنا الغزالي عودته إلى التعليم ، وأنها كانت بأسلوب جديد ، ونية جديدة ، وهدف جديد يختلف كل الاختلاف عما كان

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦ .
(٢) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٢٦ .
(٣) المنقذ من الضلال ، ص ١٥٩ .

عليه سابقاً ، فيقول: «وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ، فإن الرجوع عود إلى مكان. وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي ، وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، وأني لم أتحرك لكنه حركني ، وأني لم أعمل ولكنه استعملني ، فأسأله: أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه»[١].

ولم تطل إقامته في نيسابور وكانت المدة التي درَّسها في النظامية فيها يسيرة ، ثم ترك ذلك ، وعاد إلى بيته في طوس ، واتخذ في جواره مدرسة للطلبة ، وخانقاه للصوفية ، ووزَّع أوقاته على وظائف: من ختم القرآن ، ومجالسة ذوي القلوب ، والقعود للتدريس حتى توفي بعد مقاساة لأنواع من القصد ، والمناوأة من الخصوم ، والسعي فيه إلى الملوك ، وحفظ الله له عن نوش أيدي النكبات[٢]. وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام ، وهذا توفيق من الله تعالى كبير للإمام الغزالي أن جعل خاتمته على

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٥).

الحديث والسنة ، ونحسب أن الله تعالى وفقه لهذه النهاية بكرم وفضل منه ومنة .

ولم يتفق له أن يروي ، ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إرثاً وكسباً ما يقوم بكفايته ، وقد عُرضت عليه أموال فما قَبِلَها[١] . ومما كان يعترض به عليه وقوع خلل من جهة النحو في أثناء كلامه ، وروجع فيه فأنصف ، واعترف أنه ما مارسه ، واكتفى بما كان يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يُؤلّف الخُطب ، ويشرح الكتب بالعبارة التي يعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها[٢] .

٩ ـ الترتيب الزمني لمؤلفات الغزالي المقطوع بصحة نسبتها إليه حسب تاريخ تأليفها :

أ ـ المرحلة الأولى (٤٦٥ هـ ـ ٤٧٨ هـ) : أي قبل وفاة شيخه أبي المعالي الجويني :

١ ـ التعليقة في فروع المذهب ، وهي التي أخذها منه قطاع الطرق ، ثم ردوها إليه .

٢ ـ المنخول في أصول الفقه .

ب ـ المرحلة الثانية (٤٧٨ ـ ٤٨٨ هـ) :

١ ـ البسيط في فروع المذهب . قال فيه ابن خلكان : ما صنف في الإسلام مثله .

---

(١) المصدر السابق نفسه (١٩/ ٣٢٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

٢ ـ الوسيط (ملخص من البسيط).

٣ ـ الوجيز.

٤ ـ خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر، أو الخلاصة في الفقه الشافعي.

٥ ـ المنتحل في علم الجدل (في المناظرة والخلاف).

٦ ـ مآخذ الخلاف.

٧ ـ تحصين المآخذ (في علم الخلاف).

٨ ـ المبادئ والغايات (في أصول الفقه).

٩ ـ شفاء الغليل (في القياس والتعليل).

١٠ ـ فتوى لابن تاشفين (من جملة فتاوى الغزالي).

١١ ـ الفتوى اليزيدية (في حكم من كفَّر يزيد بن معاوية).

١٢ ـ مقاصد الفلاسفة (بيان مبادئ الفلسفة).

١٣ ـ تهافت الفلاسفة.

١٤ ـ معيار العلم. بعد التهافت وقبل سفره إلى دمشق[١].

١٥ ـ معيار العقول.

١٦ ـ محك النظر في المنطق. ويذكر الذهبي: أنه ألفه بدمشق.

١٧ ـ ميزان العقل.

١٨ ـ المستظهري، وهو رد على الباطنية.

---

(١) أبو حامد الغزالي والتصوف، عبد الرحمن دمشقية، ص ٣٥ ـ ٤٠.

١٩ ـ حجة الحق ، وذلك بيان إفساد مذهب الباطنية .

٢٠ ـ قواصم الباطنية ، يرد فيه على شبههم .

٢١ ـ الاقتصاد في الاعتقاد .

٢٢ ـ الرسالة القدسية في العقائد .

٢٣ ـ المعارف العقلية والأسرار الإلٰهية .

هذه أهم كتبه في هذه المرحلة .

ج ـ المرحلة الثالثة (٤٨٨ ـ ٤٩٩ هـ) : وكتب هذه المرحلة كثيرة ؛ أهمها :

١ ـ إحياء علوم الدين .

د ـ المرحلة الرابعة ـ من التعليم (٤٩٩ ـ ٥٠٣ هـ) : وأهم كتب هذه المرحلة :

١ ـ المنقذ من الضلال .

٢ ـ المستصفى في علم الأصول .

هـ ـ السنوات الأخيرة (٥٠٣ ـ ٥٠٥ هـ) :

١ ـ منهاج العابدين في الزهد والأخلاق والعبادات .

٢ ـ إلجام العوام عن علم الكلام . وهو آخر كتبه التي ألفها (٥٠٥ هـ) ، وقبيل موته بأيام . جرى على مذهب السلف ، ونسب ما دونه من المذاهب إلى البدعة[١] .

(١) المصدر السابق نفسه .

ثانياً: موقف الغزالي من الشيعـة الباطنيـة:

إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني الأشعري ، فإنه كان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي ، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس ، وكان الإمام الغزالي ـ العالم السني ـ يتربّع على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة ، وخاصة الباطنية الإسماعيلية؛ إذ يذكر هو: أنه ألّف في ذلك كتباً عدة ؛ أشهرها: **فضائح الباطنية** ، الذي كلف بتأليفه في (٤٨٧ هـ) من قبل الخليفة المستظهر[(١)] ، على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية ، جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس ، وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع ، وهددوا أمن الناس وسلامتهم ، وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين ، وعلى رأسهم نظام الملك نفسه ، والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة ، مع رغبته في القيام بواجبه في الدفاع عن الإسلام الحقيقي[(٢)] ، وهذا شيء جميل لما تلتقي جهود السلطة السياسية مع علمائها في تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمعات والدول والحضارات ، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني.

كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة وظهرت في مظهر ديني

---

(١) التاريخ السياسي والفكري ، عبد المجيد بدوي ، ص ١٩٤.
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٠٤) ، الغزالي ، للقرضاوي ، ص ٥٧.

سياسي ، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي: أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة ، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور[١] ، وأما الباطنية ، فكانت تتسرَّب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه ، وكانت لها الإغراءات المادية القوية ، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها ، والكشف عن أسرارها ، ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي.

١ ـ بنية الكتاب:

الكتاب قسمان: القسم الأول خصَّصه الغزالي لإظهار (فضائح الباطنية) ، وخصَّص القسم الثاني لإثبات شرعية خلافة المستظهر بالله. ويمكن أن نتبيّن تقسيماً داخلياً للقسم الأول يحتوي على أكثر من عشرة فصول: مشروعية الرد عليهم ، بيان صفاتهم ، منشؤهم ، أغراضهم ، أتباعهم ، مذهبهم ـ ويشمل الإلٰهيات ، والنبوة ، والإمامة ، والحشر ، والنشر ـ استدلالهم بالأعداد والحروف ، الكشف عن فتوى الشرع في حقهم من التكفير وسفك الدماء ، أحكام من قضي بكفر منهم ، في قبول توبتهم أو ردِّها ، العهد معهم كيف يبطل ومتى. . .[٢] إلخ.

فالغزالي بدأ حديثه بمشروعية الرد على الباطنية ذاكراً أن التأليف في الرد عليهم هو فرض عين[٣] ، ثم عمد فيما بعد إلى الخوض في

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة ، محمد الرحموني ، ص ١٤٧.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) فضائح الباطنية ، ص ٤ ، الجهاد ، للرحموني ، ص ١٤٧.

المسائل العملية محدداً من منهم يستحق التكفير ، ومن منهم يستحق التبديع ، ومتى تقبل توبتهم ومتى ترد. . . إلخ.

فالغزالي لا يواجه كفّاراً مقطوعاً بكفرهم ، وإنما يواجه مجموعة ما فتئت تؤكد من خلال أفكارها وعقائدها وممارساتها أنها من داخل الأمة ، بل هي تقدم نفسها على أنها تروم تطهير الدين من الضلالات ، كما يقول إخوان الصفا ، لذلك كان عليه أن يجتهد في إخراج هذه الجماعة من حظيرة الإسلام حتى يكون جهاداً مشروعاً ، ولا يتسنى له ذلك إلا بالكشف عن أصولها وأتباعها وعقائدها وغاياتها القريبة والبعيدة ، وحينما يتم ذلك تصبح معاملتهم معاملة الكفّار ، أي: يصبح جهادهم أمراً مشروعاً ، ويجري عليهم حينئذ ما يجري على الكفّار من شروط ، وأحكام ، وطرائق[١].

٢ ـ مضمون الكتاب:

منذُ فاتحة الكتاب ، وإلى نهاية القسم الأول؛ يطالعنا الغزالي بحرصه الشديد على الربط بين مذهب الباطنية والكفر:

أ ـ فهم كفّار في نشأتهم: ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين ، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين ، وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفّف

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة ، ص ١٤٨ .

عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين ، وينفّس عنهم ما دهاهم من أمر المسلمين[١] .

ب ـ **وهم كفّار في صفاتهم**: لا يرجون لله وقاراً ، ولو خاطبهم دعاة الحق ليلاً ونهاراً لم يزدهم دعاؤهم إلا فراراً؛ فإذا أطلّ عليهم سيف أهل الحق آثروا الحق إيثاراً ، وإذا انقشع عنهم ظلّه أصروا واستكبروا استكباراً[٢] .

ج ـ **وهم أيضاً كفّار ؛ إذ غرضهم الأقصى إبطال الشرائع**: ففي مستوى الإلٰهيات هم يقولون بإلٰهين قديمين ، لا أول لوجودهما من حيث الزمان[٣] ، وهم بذلك يلتقون مع الثنوية والمجوس ، وفي مستوى النبوات (رؤيتهم للنبي والنبوة) ، هم يرون أن النبي عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق (الإلٰه الأول) بواسطة التالي (الإلٰه الثاني) قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية ، بما فيها من الجزئيات[٤] .

د ـ **أما القرآن في مفهومهم**: فهو تعبير عن المعارف التي فاضت على الرسول من العقل ، الذي هو المراد باسم جبريل[٥] .

(١) فضائح الباطنية ، ص ٢٨ .
(٢) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة ، ص ١٤٨ ، نقلاً عن: فضائح الباطنية .
(٣) فضائح الباطنية ، ص ٣٧ .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٤١ .

هـ ـ أما عن الإمامة فقد: اتفقوا على أن الإمام يساوي النبي في العصمة والاطّلاع على حقائق الحق في كل الأمور ، إلا أنه لا ينزل إليه الوحي وإنما يتلقى ذلك من النبي خليفته وبإزاء منزلته[١] .

و ـ وأما القيامة والمعاد: فقد أنكروهما وأوّلوهما على أنهما مجرد رمز خروج الإمام ، وقيام قائم الزمان[٢] .

ز ـ وأما موقفهم من التكاليف الشرعية: ينبني على استباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع[٣] .

إن هذه الصفات والمعتقدات تسوي الباطنية بالكفار ؛ إلا أن الكفَّار يهدّدون الإسلام من الخارج ، في حين أن الباطنية يهدّدونه من الداخل ، فهم عنصر مخرّب من داخل العقيدة ذاتها ، بما أنهم ينتسبون إلى الإسلام ويستظلون برايته ويدّعون أنهم حماته ، والمعبّرون عنه بصدق ، لذلك فإن طريقة التعامل معهم يجب أن تكون أشد وأقصى من تلك التي يعامل بها الكفار[٤] .

كان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية ، فقد استطاع بفكره القوي ، وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية ، وأن يناصر المذهب السني ، فقد استطاع توظيف

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٤ .
(٤) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة ، ص ١٤٩ .

العلوم الشرعية ، والعلوم العقلية من الفلسفة ، والمنطق والكلام ، في نسف جذور المذهب الباطني ، وقال فيهم كلمته التي سارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض ، فهم يتسترون بالتشيع ، وما هم من الشيعة في شيء ، وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام[١] .

ومما يذكر للغزالي: استمراره على نقد هذه الطائفة ، وكشف اللثام عن تناقض أفكارها ، وفضائح أعمالها ، وسوء نواياها ، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت ، أن هذا النقد قد يكلفه حياته ، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير ، الوزير نظام الملك ، وفخر الملك ابن نظام الملك أيضاً ، فلم يجد بدّاً أمام ضغطهم من الإذعان ، وكان الباطنية يهددون كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك ، أو رجال العلم ، بالانتقام في صورة طعنة في خنجر ، أو سم يدس في طعام ، أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق ، ومواجهة الباطل ، مهما تكن النتيجة ، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له[٢] .

وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد ، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم ، ويخافون من القتل والاغتيال ، أو تهمة الوهم بالطائفية ،

---

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، للقرضاوي ، ص ٦٠ .
(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ٦٢ .

أو وقوعهم تحت إبر التخدير الباطنية ، أو نتيجة مجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة ، أو حسابات دنيوية زائلة ، ولذلك تركوهم يعيثون فساداً بعقائد الأمة ومقدساتها ، وساهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين ، مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها ، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم؟! .

٣ ـ البعد السياسي في كتابات الغزالي :

يعتبر الغزالي المنظِّر الكبير للدولة السلجوقية السنية ، ولم يكن يعيش بعيداً عن الأحداث وصراعات السلاجقة مع خصومهم الفاطميين الإسماعيليين ، فقد كان قبل عزلته وتركه للنظامية ، فيلسوف الدولة الذي عاش في كنفها ، بالمعنى الإيديولوجي الكامل لكلمة (فيلسوف) . لقد انخرط في سلك حاشية الوزير السلجوقي نظام الملك ، منذُ الثامنة والعشرين من عمره ، وباستثناء كتابين في الفقه (التعليق والمنخول) ، فإن جميع ما كتبه الغزالي كتبه بعد انخراطه في سلك كبار رجال الدولة السلجوقية ، وكما هو معروف فلقد كان الخصم الأساسي والخطير لهذه الدولة الإسماعيلية الباطنية ، إسماعيلية (الموت) ، بزعامة الحسن بن الصباح .

وقد ركزت الإسماعيلية آنذاك في دعوتها السياسية على القول بضرورة (المعلم) أي : الإمام ، وكما هو معروف فقد كتب الغزالي في الرد على الباطنية ، وقد كتبه كما صرّح هو بنفسه بأمر من الخليفة

العباسي المستظهر بالله ، فأهداه إليه وسمي الكتاب أيضاً (المستظهري) ، ومذهب الإسماعيلية مذهب ديني فلسفي سياسي ، وإبطال آرائهم السياسية والدينية يتطلب أيضاً إبطال فلسفتهم ، ولم تكن فلسفتهم شيئاً آخر غير الفلسفة التي كان يلتقي عندها في المشرق فلاسفة العصر يومئذ ، أعني[١]: الأفلاطونية المحدثة في صيغتها المشرقية الهرمسية.

ومن هنا هجوم الغزالي على الفلسفة[٢] ، وعندما نفحص كتاب (فضائح الباطنية) ، فنحن نتبين بوضوح كيف أن التهافت قد كتب فعلاً من أجل فضائح الباطنية ، إذ إن هناك أموراً تفهم بقراءة الفضائح ؛ في مقدمة تلك الأمور الدافع إلى الهجوم على الفلاسفة ، والذي هو دافع عقائدي واضح ، لأن الفلاسفة يمدون الباطنية بالجانب التنظيري لمذهبهم ، فقد كان الفلاسفة نصيراً قوياً ومعيناً لهم ؛ من ذلك مثلاً : عقيدتهم في المعاد ، فالملاحظ ، كما يقول الغزالي : إن مذهبهم في المعاد ، هو بعينه مذهب الفلاسفة ، وإنما شاع فيهم لما انتدب لنصرة مذهبهم جماعة من الثنوية والفلاسفة ، فكل واحد نصر مذهبهم طمعاً في أموالهم وخلعهم ، واستظهاراً بأتباعهم ، لما كان قد ألفه في مذهبه ، فصار أكثر مذهبهم موافقاً للثنوية والفلاسفة في الباطن ، وللروافض والشيعة في الظاهر[٣].

---

(١) أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره ، ص ٦٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٩١ .
(٣) المصدر السابق نفسه .

فقد انتشر مذهب الباطنية عندما انتصر لهُ الفلاسفة ، وانتصر له الفلاسفة طمعاً في أموالهم وصلاتهم ، والنتيجة وجود المصلحة المتبادلة التي ينتج عنها توافق في القول بين الفلاسفة والباطنية[١] ، ولذلك كان الهجوم الكبير من الغزالي على الفلاسفة ، واستطاع تحويل المعركة التي كانت تدور فيما سبق بين الأشاعرة والمعتزلة إلى معركة بين الأشاعرة والفلاسفة ، وكتاب (تهافت الفلاسفة) ألفه الغزالي في المرحلة التي كان فيها أستاذ المدرسة النظامية دون منازع[٢] .

وأما الجانب الآخر فهو أن دعوى (المعلم) و (التعليم) التي ركزت عليها الإسماعيلية يومئذ وهناك من يقول: أنه لا سبيل في إبطالها إلا بطرح بديل؛ والبديل عند الغزالي هو المنطق ، وبالتالي فإلحاح الغزالي على ضرورة اصطناع المنطق منهجاً وحيداً في تحصيل العلم ، لم يكن من أجل المنطق ذاته ، بل كان ضد نظرية (التعليم) العرفانية الإسماعيلية الباطنية ، ومن أجل تقوية المذهب الأشعري الذي كانت الدولة السلجوقية قائمة على أسسه الفكرية والعقائدية ، وبالتالي كان هذا البعد يعتبر توجيه ضربة قوية لخصوم السلاجقة ، كالدولة الفاطمية الإسماعيلية ودعاتها في مرتكزاتها الفكرية ، ويبقى الجانب الثالث وهو الدعوة إلى التصوف؛ والتصوف كما هو معروف كان الأساس الإيديولوجي والتنظيمي لكيان الدولة السلجوقية ، وإذن

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٦٣٠).

فموقف الغزالي من هذه الناحية مفهوم ومبرر ، ليس هذا وحسب ، بل إن الغزالي من هذه الناحية قد أدرك بوضوح أن الجانب الروحي في العرفان الشيعي عامة لا يمكن تعويضه باصطناع المنطق ، فلم يبق إذن إلا تجريد التصوف الباطني من طابعه السياسي الذي طبعته به الشيعة الإمامية ، والإسماعيلية ، ومحاولة توظيفه توظيفاً سنياً ، وقد فعل الغزالي ذلك انطلاقاً من التراث السني العظيم. . ، فالأطراف الثلاثة: الدعوة إلى التصوف ، ومهاجمة الفلاسفة ، والدعوة إلى اصطناع المنطق ؛ ربما تجسم فعلاً تناقضاً واضحاً ، ولكن فقط على صعيد الفكر المجرد ، أما على صعيد السياسة والإيديولوجيا ، فقد كانت في وقتها أسلحة ثلاثة متكاملة موجهة نحو خصم واحد[١] .

ثالثاً: موقف الغزالي من الفلاسفة والفلسفة:

يمتاز الغزالي عن كل ما سبقه في محاربة الفلسفة ، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده ، والاعتذار عن الدين الإسلامي فكانت الفلسفة تهاجم الإسلام ، وهؤلاء يدافعون عن الإسلام ، وينفون التهم الموجهة إليه ، ويحاولون أن يُبرِّروا موقفه ، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته ، فكأنَّ علم الكلام كان جُنَّة تتلقَّى هجمات الفلسفة ، وتُحصّن العقيدة الإسلامية ، ولم يجترئ أحد من المتكلمين أن يُهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها ، لعدم تعمُّقهم في الفلسفة وتضلُّعهم من أصولها وفروعها ، ولعدم تسلحهم بالأسلحة التي يُواجهون بها الفلسفة ، ويوسعونها جرحاً ونقداً؛ فكان

---

(١) أبو حامد الغزالي دراسة في فكره وعصره وتأثيره ، ص ٦٨ .

موقفهم موقف الدفاع عن قضية ، وموقف الدفاع دائماً ضعيف ، أما الغزالي ، فقد هاجم الفلسفة وتناولها بالفحص والنَّقد ، وهجم عليها هجوماً عنيفاً مبنياً على الدراسة والبحث العلمي ، حجة مثل حجة الفلسفة ، وعقل مثل عقل الفلاسفة الكبار ، ومدوِّني الفلسفة ، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف موقف المتهم ، وألجأ مُمثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين ، فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة ، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية عادت به الثقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها ، وزالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية[١].

١ ـ دراسته للفلسفة :

لم يتهور الغزالي في الهجوم على الفلسفة ، وإنما درس الفلسفة أولاً كما حكى هو بنفسه في (المنقذ من الضلال) ، وكان يؤمن بأنه : لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فجدَّ واجتهد في دراستها ومعرفة حقيقتها وأغوارها ، حتى اطَّلع على مُنتهى علومهم ، ثم لم يستعجل كذلك ولم يبدأ بالهجوم؛ بل رأى أن المباحث الفلسفية لا تزال غامضة معقَّدة ليست في متناول الأوساط من الناس ، وأن الكُتب الفلسفية قد أُلِّفت في لغة رمزية ، وفي أسلوب غير واضح ، وكأنّ مؤلفيها قد تعمَّدوا ذلك ليقيموا سياجاً حول الفلسفة يحوطها من تناول العامة ، أو لم يكونُوا يحسنون التأليف ، فرأى أن يؤلف كتاباً يذكر فيه المباحث الفلسفية ، ونظريات

---

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٩٦٩).

الفلسفة ، ومسائلها في لغة سهلة واضحة ، وفي أسلوب مشرق ، وقد رُزق الغزالي قدرة عجيبة في تبسيط المسائل العلمية وإيضاحها فكسر ذلك السياج ، ورفع الاحتكار العلمي ، وألّف كتاب (مقاصد الفلاسفة)[١] ، وذكر فيه المصطلحات الفلسفية ، وبحوث الفلسفة وعرضها أحسن عرض ، الأمر الذي لم يحسنه رجال الفلسفة ، وذلك دون أن ينتقدها أو يعلق عليها ، وقد برهن الدكتور سليمان دنيا في مقدمته الثانية لكتاب (تهافت الفلاسفة) ، على أن عرض الغزالي لمسائل الفلسفة كان أحسن من عرض الفلاسفة أنفسهم لهذه المسائل ، عندما قارن في بعض المسائل بين أسلوب الغزالي ، وأسلوب ابن سينا ، وخلص إلى القول بأن منهج الغزالي أوضح وأدق[٢] ، وبطرح كتاب (مقاصد الفلاسفة) استطاع الغزالي أن يحقق أموراً هامة ساعدته على كسب المعركة القادمة ؛ منها :

ـ أزال الهالة الكبيرة عن الفلسفة وجعلها في المتناول .

ـ اعترف له الجميع ـ بما فيهم الفلاسفة ـ بالأستاذية في هذا الفن كما هو شأنه ـ الأمر الذي مهد له السبيل إلى أن يقول كلمته فيما بعد . . . فيجد من يستمع إليها ، وقد ظن الفلاسفة يومئذ أنهم كسبوا إلى صفهم علماً جديداً من أساطين الفلسفة .

ـ حدد الغزالي ما ينبغي الوقوف عنده من الفلسفة ، حين أرجعها إلى ستة أصول ، وأن أكثر هذه الأصول لا تتعارض مع الدين ، فألقى

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا ، ص ٢٣ ـ ٢٩ .

الأضواء بذلك على مكان المعركة المرتقب.

وقد بين الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال): أن الفلسفة انتصرت ووقفت على رجليها بآفتين:

إحداهما: نابعة من جهل المندفعين في الدفاع عن الإسلام بإنكار الفلسفة كلياً[1]. وقال في بيان هاتين الآفتين: الأولى: إن من ينظر فيها؛ أي: في الرياضيات التي هي من الفلسفة يومئذ يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح، وفي وثاقة البرهان، كهذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم، وتهاونهم بالشرع، ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم..، فهذه آفة عظيمة.

والآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينتصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم وادّعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حبّاً، وللإسلام بُغضاً، ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام

(١) الإمام الغزالي، للشامي، ص ٨١.

ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية[١] .

٢ ـ ضربة قاصمة :

وبعد أن أخذ الغزالي مكانته في المجتمع كفيلسوف يشهد له الجميع . . ، ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي قيل عنه : إنه طعن الفلسفة طعنة لم تقم لها بعد في الشرق قائمة[٢] ، يقول الدكتور سليمان دنيا : واختار له اسم (تهافت الفلاسفة) ، وعنى بهذا الاسم ـ فوق دلالته على الكتاب ـ التشهير بالفلاسفة ، والإعلان عنهم بأنهم متهافتون ، فحسب من يقرأ عنوان الكتاب فقط ، أو حتى يسمع به ، أن يعرف أنه محاولة لإثبات تهافت الفلاسفة ، وعنى بالتهافت ما أوضحه في المقدمة الأولى من نفس الكتاب بقوله : . . فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق ، والمعلم الأول . فالتهافت الذي اختاره مضافاً إلى الفلاسفة ، معناه التناقض ، أي : تناقض الفلاسفة ، يعني تناقض أفكارهم وتعارضها وتساقطها ، وليس كالتناقض اسم يؤدي ما يؤديه من دلالة على هوان الفكر الموصوف به ، وسخفه وحقارته ، فكان الغزالي أقصى ما يكون على الفلاسفة بهذه التسمية[٣] .

يقول الشيخ الأستاذ أبو الحسن الندوي في وصف الكتاب : ويتسم

(١) المنقذ من الضلال ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .
(٢) تهافت الفلاسفة ، تحقيق د. سليمان دنيا ، ص ١٥ .
(٣) تهافت الفلاسفة ، تحقيق د. سليمان دنيا ، ص ١٥ .

هذا الكتاب بقوة التعبير ، وسلامة العبارة ، وسهولة الأسلوب ، بخلاف عامة الكتب التي ألفت في الموضوع ، ويدل على أن مؤلفه ممتلئ بالإيمان والثقة بدينه ، والاعتداد بشخصيته وتفكيره ، ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء ، ورجال من مستواه العقلي والفكري ، يناقشهم ويباحثهم بحرية واعتماد ، ويقرع الحجة بالحجة ، وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين ، والباحثين ، الذي يواجه الفلسفة بإيمان وثقة ، وعقل حر ، وشجاعة علمية ، يكفر بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم ، وعبقريتهم ، وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير.

وبهذه الصفة يتجلَّى الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) ، فجاء في أوانه وقضى حاجة زمانه[١]. ويشرع الغزالي ـ بعد أربع مقدمات ذكر فيها منهاجه ـ في البحث ، وشرح حال الفلاسفة ، وفرق بين علومهم التي تصادم الشريعة ، والتي لا تصادمها ، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ، ومقدماتهم للبحوث الإلهٰية ، وبعد هذا كله يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلاسفة ، ومناقشتهم في ذلك في ضوء البحث العلمي ، والحجة العقلية ، وهي ست عشرة مسألة في الإلهٰيات ، وما بعد الطبيعيات ، وأربع في الطبيعيات ، ويبين فيها ضعف استدلالهم ، وتناقضهم ، واختلافهم ، وتهافت عقيدتهم[٢].

---

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٠١).

وقد ساعد الغزالي على نجاحه في تسديد هذه الضربة القاصمة أمور ؛ منها:

ـ التمهيد لها كما رأينا .

ـ تحديد ميدان المعركة ، وهو الجانب الإلهٰي من الفلسفة ، واستبعاد الجوانب الأخرى من رياضيات ومنطق .

ـ مكانة الإمام الغزالي وعلمه بدقائق الفلسفة ، كما يعلمها كبار الفلاسفة .

ـ استعماله كل الأسلحة التي توفرت لديه ، فهو يقول في حديثه عن ذلك : ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم ، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة ، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الفرق ، إلباً واحداً عليهم ، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل ، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين فلنتظاهر عليهم ، فعند الشدائد تذهب الأحقاد[١] .

وقد كان الغزالي واثقاً من انتصاره بعد أن أحكم الوسائل وخطط للمعركة التخطيط السديد ، ولذلك نجده ، وقد نزل إلى ساحة المعركة غير مبالٍ بخصمه ، ساخراً منه ، مستهزئاً بعقله الذي يتبجَّح به ، ولننظر إلى بعض النصوص التي أوردها في كتابه (تهافت

---

(١) تهافت الفلاسفة ، ص ٨٢ .

الفلاسفة) ، وهو يستعمل سلاح السخرية[١] قلنا: ما ذكرتموه تحكمات ، وهي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاها الإنسان عن منام رآه لاستدل به على سوء مزاجه[٢]. وقال ذلك في مقام الحديث عن نشأة الكائن الأول الواحد عن الإلٰه ونشأة ثلاثة كائنات عن هذا الكائن الأول الواحد. وقال: فلست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع ، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر ـ بزعمهم ـ في المعقولات[٣].

ومما دفعه إلى هذا الأسلوب موقفهم المشابه من الإسلام والمسلمين ، وإلا فالغزالي يحترم العلم ويقدر أهله ، ولكن هؤلاء جاهروا بالكفر ، وترفعوا على الناس ، وظنوا بأنفسهم الفطنة ـ كما يقول في المقدمة ـ فاستحقوا هذا الأسلوب.

وفي مقدمة الكتاب هجوم عنيف ، فيصبح الخصم فيه عاجزاً عن تدارك أمره ، وكان هذا الهجوم في نص أدبي رائع في معناه ومبناه[٤].

وعلق الإمام الغزالي على بحثهم واجب الوجود ، وأنَّه يعقل نفسه ، ولا يعقل غيره بكلمته اللاذعة القوية: فقد انتهى بهم التعمق في الفطنة ، إلى أن أبطلوا كل ما يُفهم من العظمة ، وقرَّبوا حاله تعالى إلى حال الميت الذي لا خير له ، بما يجري في العالم ، إلا أنه فارق

---

(١) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٨٥.
(٢) تهافت الفلاسفة ، ص ١٤٦ ، تحقيق سليمان دنيا.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٣.
(٤) الإمام الغزالي ، ص ٨٦.

الميت في شعوره بنفسه فقط ، وهكذا يفعل الله سبحانه بالزَّائغين عن سبيله ، والنَّاكبين عن طريق الهدى ، المنكرين لقوله تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١] ، ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦] ، المعتقدين أن أمور الربوبية ، تستولي على كُنْهها القوى البشرية ، المغرورين بعقلهم ، زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وأتباعه ـ رضوان الله عليهم ـ فلا جرم اضطروا إلى الاعتراف بأن لُباب معقولاتهم رجع إلى ما لو حكي في منام لتعجِّب منه[١] .

وهكذا يستمر الغزالي في نقد الفلاسفة وتشريحهم إلى آخر الكتاب ، حتى يأتي على جميع المسائل التي تكفَّل الرَّد عليها ، وهي عشرون مسألة ، أكثرها في الإلهٰيات ، وكفَّرهم في ثلاث مسائل ، **إحداها**: مسألة قدم العالم ، وقولهم: إن الجواهر كلها قديمة ، **والثانية**: قولهم: إن الله تعالى لا يُحيط علماً بالجزئيات الحادثة في الأشخاص. **والثالثة**: إنكارها بعث الأجساد وحشرها. قال: فهذه المسائل الثلاثة ، لا تلائم الإسلام بوجه ، ومعتقدها معتقد كَذبِ الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ وأنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة ، تمثيلاً لجماهير الخلق وتفهيماً ، وهذا هو الكفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فرق المسلمين[٢] .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١١٨ .

(٢) المنقذ من الضلال ص ٣١٣ ـ ٣١٥ .

٣ ـ تأثير كتاب (تهافت الفلاسفة):

إن غاية الكتاب ليست تكفير الفلاسفة ، بل هي إسقاط قيمة الفلسفة العلمية ، والحطُّ من مكانتها ، وإثبات أنها مجموع أفكار وتَخيلات ، وقياسات وتخمينات ، وبذلك خدم الغزالي الدين خدمة باهرة ، وخلَّف الفلسفة التي كانت تحُلُّ من نفوسهم محلَّ القدسية والإجلال ، خلَّفها بضرباته الموجعة وهجماته العنيفة إلى الوراء ، أو أوقفها على الأقل وشغلها بنفسها والدفاع عن نفسها ، ولم تستطع الأوساط الفلسفية أن تُقدم كتاباً قوياً جديراً بالذكر يرد على (تهافت الفلاسفة)[١] ، يقول علماء الإفرنج: إن الغزالي طعن الفلسفة في الشرق العربي طعنة قاضية ، وكاد يكون نصيبها في الغرب كذلك ، لو لم تَلق في ابن رشد حامياً لها أحياها قرناً من الزمان[٢] .

٤ ـ خلاصة عمل الغزالي في ميدان الفلسفة:

نستطيع تلخيص عمل الغزالي في ميدان الفلسفة بما يلي:

١ ـ حاربها دفاعاً عن الإسلام وخدمة لدينه ، وقد كانت الفلسفة حرباً على الدين.

٢ ـ لم يحارب الفلسفة كلها ، إنما حدد معركته مع الفلسفة الإلٰهية الإغريقية.

٣ ـ أبعد عن الفلسفة العلوم الأخرى التي كانت منضوية تحت

---

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٠٤).

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٠٤).

لوائها ، فجعلها وحيدة بعيدة عن جنودها الذين كانت تستخدمهم كسياج في الدفاع عنها ، وقد أصبحت هذه العلوم فيما بعد مستقلة قائمة بذاتها مثل : الرياضيات ، والطبيعة (الفيزياء) ، والمنطق ، وعلم الأخلاق ، والسياسة .

٤ ـ رفع الحصانة عنها ، وأزال تلك الهالة التي كانت تضفي عليها التقديس والاحترام ، وأثبت أنها مجموعة أفكار ، وتخيلات وقياسات وتخمينات . وهكذا لم ير الغزالي فيها بعد تعريتها ما يصلح أن يكون (علماً) ، ولذلك عندما تحدث في كتابه (الإحياء) عن العلوم لم يعدَّ الفلسفة علماً ، وأوضح ذلك بقوله : وأما الفلسفة فليست علماً برأسها ، بل هي أربعة أجزاء :

أحدها : الهندسة والحساب .

الثاني : المنطق : وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه .

الثالث : الإلٰهيات . . ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين . . ، فكذلك الفلاسفة .

الرابع : الطبيعيات : وبعضها مخالف للشرع . وبعضها بحث عن صفات الأجسام[1] .

ويعطينا خلاصة رأيه في كتابه (المنقذ من الضلال) فيقول : ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة ، وتحصيله ، وتفهيمه وتزييف ما يزيف

(١) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٨٧ ، إحياء علوم الدين (١/ ٢٢) .

منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات[(١)] .

٥ ـ موقف الغزالي بين العقل والنقل :

يؤكد الغزالي هنا مبدأ مهماً ـ عمقه ووسعه ابن تيمية فيما بعد في كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل) ؛ على اختلاف بينهما في تطبيقه ـ وهو أن العقل والشرع لا يتعارضان تعارضاً حقيقياً من الناحية النظرية ، لأن كليهما نور من عند الله ، فلا ينقض أحدهما الآخر ، ولا من الناحية العملية ، فلم يثبت أن اصطدمت حقيقة دينية بحقيقة عقلية ، بل يرى الغزالي أن أحدهما يؤيد الآخر ويصدقه[(٢)] ، بل نراه في (المستصفى) وهو من أواخر ما صنف ، يعتبر العقل قاضياً ، والشرع شاهداً ؛ حيث يقول بعد الديباجة : أما بعد فقد تناطق قاضي العقل ، وهو الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدل ، وشاهد الشرع ، وهو الشاهد المزكى المعدل؛ بأن الدنيا دار غرور لا دار سرور . . ، ومحل تجارة ، لا مسكن عمارة ، ومتجر بضاعتها الطاعة ، والطاعة طاعتان؛ عمل وعلم ، والعلم أنجحها وأربحها؛ فإنه أيضاً من العمل ، ولكنه عمل القلب الذي هو أعز الأعضاء ، وسعي العقل الذي هو أشرف الأشياء؛ لأنه مركب الديانة ، وحامل الأمانة ، إذ

(١) المنقذ من الضلال ، ص ١٣٠ .

(٢) الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

عرضت على الأرض والجبال والسماء ، فأشفقن من حملها وأبين أن يحملنها غاية الإباء[١] .

وها هو في (الإحياء) نراه يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية ، ويبين الحاجة إلى كل منهما ، ويقرر أن لا غنى بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل ، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعاً بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضرّ بالغذاء متى فاته الدواء ، فكذلك أمراض القلوب ، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة[٢] .

ثم يحمل الغزالي بقوة على من يظن أن ثمة تناقضاً بين العقليات والشرعيات فيقول: وظن من يظن أن العلوم العقلية متناقضة والعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن ، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما ، فيظن أنه تناقض في الدين فيتحير به ، فينسل من الدين ، انسلال الشعرة من العجين ، وإنما ذلك ، لأن عجزه في نفسه خيَّل إليه نقصاً في الدين وهيهات[٣] .

---

(١) المستصفى (١/ ٣).
(٢) الإحياء (٣/ ١٧).
(٣) الإحياء (٣/ ١٧٩) ، الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ٤٦ .

٦ ـ انتصار الفكر السني في العهد السلجوقي :

إن المعارك الفكرية ليست بأقل خطراً في حياة الأمة من المعارك العسكرية ، ذلك أن الغزو الفكري أسوأ وأشد خطراً من الغزو العسكري ، ولقد انتصر الغزالي في معركته مع الفلسفة ، دفاعاً عن الإسلام ، فاستطاع في أقل التقديرات أن يرد الفلسفة ، فيجعلها في موقع الدفاع بعد أن كانت في موقع الهجوم ، واستحق بجدارة أن يلقب بحجة الإسلام ، وانفرد بهذا اللقب الذي بين مكانة الرجل في تاريخ الفكر[١] ، إن الأمة اليوم في أشد الحاجة لحجة إسلام جديد ، يفضح المناهج الغربية ، والدساتير الوضعية ، والشعارات البرّاقة في مجال الحريات ، والعدل ، وحقوق الإنسان والمرأة ، ونظام الحكم ، ومحاسبة الحكام ، وغير ذلك من الشعارات ، والمبادئ الزاحفة ، فيقدم البدائل الصحيحة من خلال كتاب الله وسنة رسوله ، وعقيدة الأمة وتراثها ، فينتصر للإسلام في المعركة الفكرية الخطيرة التي تدار رحاها بين الثقافات والحضارات ، فيبين عوار مناهج الخصوم ، ويستفيد من الحق الذي معهم ويطرح المشروع الفكري الإسلامي في أبهى حلة ، مع جمال الألفاظ في العرض ، وعمق المعاني في الأسلوب؛ مؤيداً لأفكاره بالحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة ، والأدلة الواضحة.

---

(١) الإمام الغزالي ، ص ٨٨.

رابعاً: الغزالي وعلم الكلام:

ما من شك أن الغزالي ألف كتباً في علم الكلام ، ولنترك الغزالي يحدثنا عن ماذا استقرّ رأيه في هذا العلم ؛ فقد قال: إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودي. وإنما مقصوده عقيدة أهل السنة ، وحراستها من تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار ، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجُوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصر السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله[١].

هكذا نشأ علم الكلام وصرّح الغزالي أنه لم يف بحاجته عند الفحص ، ووجده قاصراً عن أداء المهمة الموكلة إليه ، خاصة وأن أصحابه قد أكثروا الخوض فيه ، وخاضوا في البحث عن الجوهر والأعراض وأحكامها. . ، ولم يحصل من علمهم ما يمحو ظلمات الحيرة[٢] ، ولهذا لما تحدث الغزالي في كتابه (الإحياء) عن العلوم ، قال: اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٠١.

بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع . . ، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل لمقالات أكثرها ترهات وهذيانات ، تزدريها الطباع وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين[١] .

ثم بين أن ذلك لم يكن في الصحابة فقال : . . فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله ﷺ ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام[٢] .

وقد بين الغزالي أن بعض الفرق ضلت بسلوكها طريق علم الكلام ، ولفت النظر إلى أن القرن الأول لم يسلكوا هذا المسلك ، فقال : ولكنه . . عميت بصيرته ، فلم يلتفت إلى القرن الأول ، فإن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى ، فما جعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات والمجادلات . . ، وإذا رأوا مصرّاً على ضلالته هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه في الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر ، بل قالوا : إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة ، إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال : ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلاّ أوتوا الجدل[٣] .

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣).
(٣) سنن الترمذي ، قال الترمذي : حسن صحيح .

ثم إنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام ، وإفحام ، وتحقيق حجة ، ودفع سؤال ، وإيراد إلزام ، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ، ولم يزد في المجادلة عليه ، لأن ذلك يشوش القلوب[١] .

وبيَّن الغزالي الغلط في إطلاق لفظ (التوحيد) على علم الكلام ، فقال : لفظ التوحيد : وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها . حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمي المتكلمون : العلماء بالتوحيد ، مع جميع ما هو خاصة هذه الصناعة ، لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول ، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة ، فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع ، فلقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر ، لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل[٢] .

وأنكر الغزالي على عوام الناس أن يشتغلوا بعلم الكلام . وقال : إن دين عوام الناس ينبغي أن يكون صافياً نقياً بعيداً عن تعقيدات الجدليين

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٣) .

المتكلمين؛ ولهذا ينبغي إلجام العوام عن علم الكلام[١] ، ثم بين الإمام الغزالي أن إيمان العوام الحاصل لهم بتواتر السماع إنما يقوى بكثرة العبادة والذكر ، فيقول: والإيمان الراسخ على الحقيقة هو إيمان العوام الحاصل على قلوبهم من الصبا بتواتر السماع ، وتمام تأكيده بلزوم العبادة والذكر ، فإن من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى ، وتطهير القلب من كدرات الدنيا ، وملازمة ذكر الله دائماً ، تجلت أنوار المعرفة وصارت الأمور ـ التي كان قد أخذها تقليداً ـ عنده كالمعاينة ، والمشاهدة ، والكلام المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً ، مشرف على الزوال بكل شبهة[٢] .

وقال: لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حق بعض الناس ، لكن ليس ذلك بمقصور عليه وهو أيضاً نادر ، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ ، كما يشتمل عليه القرآن. فأما الكلام المحرَّر على رسم المتكلمين ، فإنه يُشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة وجدلاً ، ليعجز عنه العامي ، لا لكونه حقاً في نفسه؛ وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه ، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو البدعة إلى غيره ، ولا عن مذهب الشافعي إلى مذهب أبي حنيفة ، ولا على العكس ، وتجري هذه الانتقالات بأسباب أخرى، حتى في القتال بالسيف ، ولذلك لم تجر عادة السلف

---

(١) إلجام العوام عن علم الكلام ، ص ٣٨ .
(٢) فيصل التفرقة ، للإمام الغزالي ، ص ٢٠٤ .

بالدعوة لهذه المجادلات ، بل شدَّدوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال[١] .

وازداد الغزالي ـ مع الأيام ، وبعد التجارب العلمية ـ اقتناعاً بأن أسلوب القرآن في الإقناع أبلغ وأنفع وأعمُّ وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة ، وبأن علم الكلام علاج مؤقت ومختص بمن نشأ عنده شكوك وشبهات ، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة . أما القرآن فكان الغذاء الصالح ، والماء السائغ ، يحتاج إليهما كل إنسان وينتفع ، ولا ضرر فيه ولا خطر .

يقول في كتابه (إلجام العوام عن علم الكلام) ـ الذي هو من آخر مؤلفاته ـ[٢] : فأدلَّة القرآن مثلُ الغذاء ، ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ، ينتفع به آحاد الناس ، ويستضرُّ به الأكثرون ؛ بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبيُّ الرضيع ، والرَّجل القوي ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرّة ، ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً[٣] .

ويذكر تجربته ومشاهدته كشاهد على ذلك : والدليل على تضرُّر الخلق به ، المشاهد والعيان والتجربة ، وما ثار من الشرِّ مُنذ نبغ المتكلمون ، وفشت صناعة الكلام ، مع سلامة العنصر الأول من

---

(١) فيصل التفرقة ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١١) .

(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ، ص ٢٠ .

الصحابة عن مثل ذلك[١]. وهكذا تتجلّى شخصية الغزالي في نقد الفلسفة وعلم الكلام شخصية فريدة مستقلة التفكير ، قوية التأثير تمتاز بسلامة الفكر ، واتّزان العقل ، وحصافة الرأي ، وعمق النظر ، والثقة بالنفس ، له منهج خاص في نقد الفلسفة ، وعلم الكلام ، وإثبات العقيدة الإسلامية ، وهو ممن توفرت عنده أدوات الاجتهاد في هذا الموضوع ، فكان من أئمة هذا الفن المجتهدين ، ومن كبار المؤلفين المُنتجين[٢].

خامساً: الغزالي والتصوف:

كان التصوف أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها ، والانفراد عن الخلق ، وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف ، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، اختصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[٣]، ويغلب على الظن أن هذا المصطلح كان إفرازاً أنتجه الواقع عندما بدأت تخصصات العلوم تأخذ أبعادها ، فقد كانت كلمة (الفقه) تشمل على كل ما انضوى تحت كلمة التصوف ، فلما اقتصر مفهوم كلمة الفقه على فقه العبادات، وفقه المعاملات في جانبها الظاهر، استبعدت منه بحوث الأخلاق والسلوك، كان لا بد لهذه الجوانب

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١١).
(٣) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٩٩ ، نقلاً عن: مقدمة ابن خلدون.

المستبعدة من الاستقلال والانضواء تحت عنوان يمثلها ، فكان التصوف ، ومن السهل تعداد ما يشتمل عليه هذا العنوان : فالأخلاق الكريمة هي الأساس ، والزهد الذي يعني الترفع على الدنيا ـ ولا يعني ذلك الفقر ـ هو الطريق ، وكثرة العبادة هي وسيلة القرب إلى الله تعالى ، وبتطبيق العلم مع الإخلاص تكون النجاة[1] .

يقول الغزالي في رسالته (أيها الولد) : ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع ، إذ العلم والعمل بلا اقتداء بالشرع ضلالة ، وينبغي لك ألا تغتر بشطح الصوفية وطاماتهم ، لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة ، وقطع شهوة النفس ، لا بالطامات والتُّرَّهات[2] . تلك هي العناصر التي انضوت تحت هذا العنوان . . ، ثم تبعتها فضوليات ليست من الإسلام في شيء ، وهي التي أشار إليها الغزالي بالطامات والتُّرَّهات ، وظهرت مصطلحات أخرى مثل (أهل الإرادة) ، و (أرباب السلوك) ، التي استعملها ابن القيم رحمه الله . ولكنها لم تنتشر انتشار المصطلح الأول ، ومن غير الصواب أن ينظر إلى الفضوليات التي أدخلت على التصوف على أنها الأصل ، وتنسى العناصر الأصلية ، فيحارب التصوف كله بما فيه من حق وباطل ، وهو المسلك الذي سلكه ابن تيمية رحمه الله[3] .

حيث قال في شأن الصوفية عندما علق على كلام أبي القاسم

---

(١) الإمام الغزالي ، ص ١٠٠ .

(٢) أيها الولد ، للغزالي ، نقلاً عن : الإمام الغزالي ، ص ١٠٠ .

(٣) الإمام الغزالي ، ص ١٠١ .

القشيري: والثابت الصحيـح عن أكابر المشايخ (الصوفية) يوافق ما كان عليه السلف. وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر، فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ، مثل: الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، ومعروف الكرخي، إلى الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأمثال هؤلاء ما بين حقيقة مالأت المشايخ، وقد جمع المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو ـ أي القشيري ـ غير واحد، فصنف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي كتاب (التعرف لمذاهب التصوف)، وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب، وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها، وأكابر مشايخها.

وكذلك معمر بن زياد الأصفهـاني شيخ الصوفية، وأبو عبد الرحمن السلمي جامع كلام الصوفية، هما في ذلك أعلى درجة، وأبعد عن البدعة والهوى من أبي القاسم، وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في (رسالته) لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية[١]، وبعد أن أثنى ابن تيمية على عقيدة هؤلاء المشايخ من الصوفية، عتب على أبي القاسم القشيري أنه لم يذكر في رسالته الأولياء الكاملين، الذين كانوا في القرون الثلاثة الأولى[٢]، فقال: وما ذكره أبو القاسم في رسالته في اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم، فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقص عن طريقة

---

(١) الاستقامة (١/ ٨٢ ـ ٨٤).
(٢) الإمام الغزالي، للشامي، ص ١٣.

أكثر أولياء الله الكاملين ، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم ، ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة[١] .

وهكذا نرى أن ابن تيمية لم ينكر طريقة الصوفية في أصلها بل أثنى على مشايخها الذين استقاموا على الطريق ، ولم يعدهم خارجين على طريق السلف[٢] ، وقد نقل كلام القشيري التالي: اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف ، وأهل السنة من توحيد ، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، ثم قال ابن تيمية: قلت: هذا كلام صحيح ، فإن كلام أئمة المشايخ الذين لهم في الأمة لسان صدق ، كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة ، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وهذه الجملة يتفق على إطلاقها عامة الطوائف المنتسبين إلى السنة ، وإن تنازعوا في مواضع[٣] .

وهكذا يثني ابن تيمية على الصوفية ـ السلمية ـ بأن اهتمامهم بالعمل أكثر من اهتمامهم بالقول. ولا بد من هذه التوطئة عند الحديث عن الغزالي والصوفية ، ولا ندعي العصمة للغزالي ولا غيره ؛ لأن العصمة للأنبياء والمرسلين ، أما غيرهم من الناس فيخطئ ويصيب.

١ ـ بدء طريق التصوف عند الغزالي:

قد تحدثت فيما مضى عن التحول الكبير الذي حدث للغزالي ،

(١) الاستقامة (١/ ٨٩).
(٢) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ١٣ .
(٣) الاستقامة (١/ ٩٠ ـ ٩١).

وكيف استطاع أن يتغلب على أمراض النفس من حب الصيت ، والجاه ، والمنصب ، والشهرة بعد أن أعانه الله على ذلك ، ويبدو أن الغزالي اختار طريق الصوفية بعد جهد جهيد ، وهو بنفسه يوضح لنا كيف سلك الطريق ، فقد قال: ثم إني. . أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم: قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر عليَّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ، رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات.

ثم قال: وكم من الفَرْق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر. . ، وبين أن يكون سكراناً ، بل السكران لا يعرف حد السكر ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء ، والطبيب ـ في حالة المرض ـ يعرف حد الصحة وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد الصحة ، وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك (الزهد) ، وعزوف

النفس عن الدنيا. ثم تحدث عن خلاصة ما توصل إليه بشأن المتصوفة ، فقال: فعلمت يقيناً أنهم أرباب (الأحوال) لا أصحاب (الأقوال) ، وأن ما يمكن تحصيله من طريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلاما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك[١].

٢ ـ نتائج الدراسة:

كان من نتائج دراسة الغزالي للتصوف أنه نظر في نفسه وتفحص ما هو فيه ، فإذا به يرى غروراً كاذباً ، وحياة غلبت عليها المظاهر ، ففقدت روحها وحيويتها ، وقاس نفسه بمقاييس الإسلام الحقة ، فأشفق على نفسه ؛ لقد تبين له من نفسه:

أنه كان جل اهتمامه بالجانب النظري من العلم ، دون الجانب العملي ، وأن ما كان يعده عملاً يتقرب إلى الله تعالى به من التدريس والتعليم ، كان فاقداً لشرط القبول وهو النية. . ، وإذا به فجأة يجد نفسه بلا رصيد في مقياس الآخرة.

وأنه يفتقد عنصراً مهمّاً في ميداني النظر والعمل ؛ وهو (الإخلاص).

فاكتشف من نفسه ما دفعه إلى الخوف ، وإلى الحرص على الوقت فيما تبقى من عمره أن يصرف في مرضاة الله[٢]. وانتهى به المطاف إلى

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص ١٣٩ ـ ١٤١.

(٢) الإمام الغزالي ، ص ١٠٦.

طريق الصوفية ، فعلم يقيناً ـ كما يقول هو ـ أنهم هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً . . ، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور النبوة ، وليس على وجه الأرض نور يستضاء به[١] . وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها ـ وهي أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . . ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ . وهذا الآخر بالإضافة إلى ما يدخل تحت الاختبار والكسب ، ولكن الترقي مستمر حتى ينتهي إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكن الاحتراز عنه .

قال : وعلى الجملة : ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة (الحلول) ، وطائفة (الاتحاد) ، وطائفة (الوصل) ، وكل ذلك خطأ ، ويؤخذ على الغزالي دخوله إلى التصوف . وقد كان دخول المحب العاشق لا دخول الفاحص الناقد ، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد ، التي نظر بها إلى علوم الفلسفة والمتكلمين والباطنية ، بل بعين الرضا والحب :

---

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١١٨ .

وعيـن الـرضـا عنـد كـلِّ عيـبٍ كليلـةٌ
كمـا أن عيـنَ السخـطِ تُبـدي المسـاويـا

وقال الشاعر:

وإذا الحبيـبُ أتـى بـذنـبٍ واحـدٍ
جـاءتْ محـاسنـهُ بـألـفِ شفيـعِ

وسد هذا أنه تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله، وبذوقه قبل فقهه، وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أخذ على القوم في الفكر وفي السلوك دون أن يعرضها على قانون الفقه، أو منطق العقل، ومن أجل هذا أنكر عليه العلامة ابن الجوزي وغيره من الناقدين قوله لكثير من أفكار الصوفية، وأعمالهم وأحوالهم، وهي مخالفة لقانون الشرع، منحرفة عن الكتاب والسنة الصحيحة، وربما اعتذر أبو حامد في بعض الأحيان عن تجاوزات بعض القوم باعتذارات لا يقبلها منه الفقهاء، كقوله بعد حكاية الصوفي الذي عرفه الناس بالإصلاح في محله، فخاف على نفسه الفتنة، فدخل الحمام، وسرق بعض الثياب الفاخرة، ولبسها وخرج.. فلحقه الناس، وأخذوا منه الثياب وصفعوه...، وصار يعرف بعد ذلك (لص الحمام)؟ فسر بذلك وسكنت نفسه[1]. قال أبو حامد: فهكذا كانوا يروِّضون أنفسهم، حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس، وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه، مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم من

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص ١٢٠.

صورة التقصير[١] ، وابن الجوزي شدد النكير على أبي حامد في حكاية هذا وأمثاله ، واستحسانه وتبريره[٢] .

٣ ـ تصوف بغير شيخ :

بدأ الغزالي تصوفه في شهر رجب عام (٤٨٨ هـ) ـ كما ذكر في المنقذ ـ حيث التجاذب في نفسه بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ، فلم يزل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وتصدق رغبته بكرة ، وتضعف عشية ، حتى صمم أخيراً على سلوك طريق الآخرة ، واستمر هذا التردد قرابة ستة أشهر ـ كما قال ـ ، وما طول هذه المدة إلا لأن الأمر الذي يقدم عليه هو الخطوة الأولى في هذه النقلة البعيدة المدى ماديّاً ونفسيّاً ، ولم يكن هناك من يستشيره في هذا الأمر ، فيكون في مشورته مساعدة على البت فيه ، وإنما كان تصرفاً شخصياً ، كان الباعث عليه وقوفه على علم التصوف الذي أيقظ فيه ، حساب نفسه ، وتدبر أمره ، وأما ما تذكره بعض المصادر ، من أنه تتلمذ على الفارمدي ، وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات ، والإمعان في النوافل[٣] ، فذلك أمر فيه نظر ، ذلك أن (الفارمدي) ، توفي عام (٤٧٧ هـ) ، والغزالي لم يبدأ مشوار التصوف إلا في أواخر عام (٤٨٨ هـ) ، أي : بعد أكثر من عشر سنوات من وفاة الرجل ، ولعله كان مرشداً في علم التصوف لا في

---

(١) تلبيس إبليس ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، الإحياء (٣/ ٢٨٨).
(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٢١ .
(٣) طبقات الشافعية ، للسبكي ، (٤/ ١٠٩).

التطبيق ، ذلك أن عام (٤٧٧ هـ) وما قبله كان الفترة التي سيطر فيها على الغزالي التطلع على الجاه والمنزلة. . ، الأمر الذي يتعارض مع مفهوم التصوف ، نستطيع القول إذاً بأن الغزالي قطع طريق التصوف بمجاهدته الشخصية دون الاعتماد على شيخ تتوفر فيه المواصفات اللازمة المهمة ، وليس هذا بمستغرب على الغزالي ، فقد كان له من الهمة والعزم ما تصغر معه عظائم الأمور[(١)].

٤ ـ نقد الغزالي للصوفية :

على الرغم من أن الغزالي يزكي طريقة الصوفية؛ لأنها تتضمن العلم والعمل معاً ، وأنه انحاز إلى طريقتهم الذوقية في نهاية الأمر ، بعد التجربة والممارسة وإتقان العلم ، فإنه لم يتوانَ عن نقد معظم فرق الصوفية التي سادت في عصره وما قبله ، نقداً شديداً[(٢)] ، وسلط الأضواء على أخطاء وانحرافات بعض المتصوفة.

أ ـ قلة المتصوفين :

يرى الغزالي أن التصوف غير موجود ، وذلك لعدم وجود من يسلك الطريق ، وإذا وجد السالكون ، فهم غير منضبطين مع ما يتطلبه الطريق من سلوك. يقول : والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت ، إلا التصوف ، فإنه قد انمحق بالكلية وبطل؛ لأن العلوم لم تدرس بعد ، والعالم ـ وإن كان عالم سوء ـ فإنما فساده في سيرته لا في

---

(١) الإمام الغزالي ، ص ١٠٨.

(٢) مسألة المعرفة ، ومنهج البحث عند الغزالي ، د. أنور الزعبي ، ص ١٨٧.

علمه ، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم. وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى ، واستحقار ما سوى الله ، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح ، ومهما فسد العمل فات الأصل[١] ، ويوضح أن المشايخ الذين يقتدى بهم لا وجود لهم ، فيقول: وقد خلت البلاد الآن عن شيخ يقتدى به في علمه وسيرته[٢]. ويبين لنا سبب هذا الفقدان للمتصوفة ، فيقول: . . إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله. ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه ، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه ، فإن دواءه مخالفة الشهوات ، وهو نزع الروح ، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه ، لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض ، قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الداء عضالاً ، والمرض مزمناً ، واندرس هذا العلم ، وأنكر طب القلوب ، وأنكر مرضها[٣]. وإذا كان الشيخ المربي مفقوداً والسالك غير موجود ، حلَّ مكانهما المنتفعون واللصقاء ، وهنا كان على الغزالي أن يبين الأخطاء ، ويظهر الانحرافات حتى لا يساء فهم الدين[٤].

ب ـ **فساد المتصوفة**: ويعطينا الغزالي صورة عما آل إليه أمر

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥٠).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٦٣).
(٤) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ١١٨.

المتصوفة من فساد ، فيقول : . . . إن أكثر متصوفة هذه الأعصار ـ لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ، ودقائق الأعمال ، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة ، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ـ قد ألفوا البطالة ، واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب ، واستلانوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد ، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم ، واستخفوا عقولهم وأديانهم ، من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة ، وانتشار العبث ، واقتناص الأموال بطريق السؤال ، تعللاً بكثرة الأتباع لم يكن لهم في الخانقاهات حكم نافذ . . ، فلبسوا المرقعات ، واتخذوا في الخانقاهات متنزهات . . ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ويعتقدون أن كل سواد تمرة . . ، فهؤلاء بغضاء الله[1] .

ج ـ **الغرور والجهل**: ويرى الغزالي أن الغرور قد هيمن على كثير من المتصوفة ، وقد عدَّ نماذج كثيرة من غرورهم ، ثم قال: وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ، ولا تستقصىٰ ثم بين أن مصدر ذلك كله الجهل وعدم سلوك الطريق بشكل صحيح بحيث يكون بعد العلم ، فالكثير منهم جهلة ، ومع ذلك ادعوا المعرفة ، بترديد كلمات هي طامات ، ويظن أنه أوتي علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين ،

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٥٠) .

وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام[١]. وكل ذلك بناءً على أغاليط ووساوس، يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم، صالح للاقتداء به[٢].

د ـ سقوط التكاليف: ويحدثنا الغزالي عن انحراف آخر لبعض الصوفية، لعله من أسوأ انحرافاتهم، ذلك أن بعضهم وقع في الإباحة، وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام..، وهم فئات[٣]. ومن هؤلاء طائفة ظنت أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع عن محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكاليف على عوام الخلق[٤]. وحكم الغزالي على هذه الفئات بأنها مذاهب باطلة وضلالات هائلة[٥]. إن الغزالي لم يقبل التصوف بعجره وبجره، بل رفض في حزم تصوف أهل الحلول والاتحاد، كالحلاج، وأشباهه، ولم يقبل إلا التصوف السني القائم على الكتاب والسنة، واجتهد أن يرد كل فكرة، أو خلق، أو سلوك، أو حال، مما يقول به المتصوفة

---

(١) الإمام الغزالي، ص ١٢٠.
(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ٤٠٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) الإمام الغزالي، للشامي، ص ١٥٤.

إلى أصول إسلامية ، وأن يستدل عليها بالقرآن والحديث والأثر[١] ، وقد حاول أن يخفف من غلوِّ القوم في فهمهم للتوكل والزهد ونحوهما ، وإن أصابه شيء من رذاذهم[٢] ، ونقول ما قاله الذهبي: فرحم الله أبا حامد ، فأين مثله في علومه ؟! ولكن لا ندّعي عصمته من الغلط والخطأ[٣] .

٥ ـ أثر الغزالي في التصوف:

أثر الغزالي أثر كبير في التصوف ، ولا زال هذا الأثر إلى يومنا الحاضر ، فقد استطاع أن يصنع معالم لطريق التصوف ومقاييس له ، تكشف الزيف وتظهر الخطأ ، الأمر الذي يساعد على الإصلاح ، ويسهل طريقه ، ومما يذكر له في هذا الميدان:

أ ـ ضرورة العلم الشرعي: نبّه الغزالي على ضرورة العلم الشرعي لسالك طريق الآخرة ، خلافاً لما كان شائعاً بين كثير من الصوفية: أن العلم حجاب ، وقد جعل أول كتاب من كتب (الإحياء) الأربعين: كتاب العلم ، وأول عقبة يجب أن يجتازها (العابد) هي العلم ، كما في (منهاج العابدين) ، وأكد في مواضع لا تحصر: أن السعادة لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وقال في رسالة (أيها الولد): إن العلم بدون عمل جنون ، والعمل بدون علم لا يكون[٤] ، والإحياء هو الكتاب الذي

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٢١ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .
(٤) أيها الولد ، للغزالي .

وضعه لسالكي الطريق ، وإذن فهو ينكر كل الإنكار أن تكون المجاهدة ورياضات النفس قبل العلم ولم يؤد ذلك يؤدي إلى الانحراف. ويرى الغزالي أن نظرة العالم أدق وأصوب من نظرة الصوفي[١]. ولذلك قال: .. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف[٢].

ب ـ رفض الغزالي للتأويلات الباطنية: التي تخرج بالنصوص الشرعية عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، فإن هذا يقتضي بطلان الثقة بالألفاظ ، وتسقط من منفعة كلام رسوله ﷺ ، فإن ما يسبق إلى الفهم لا يوثق به ، والباطن لا ضابط له ، ومثَّل لذلك بقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧] ، أي: إشارة إلى قلبه. وقوله: ﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ ﴾ [القصص: ٣١] ، أي: ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله ، فينبغي أن يلقيه ، ومثله حديث: «تسحروا فإن في السحور بركة». وتأويله: بأنه الاستغفار في الأسحار ، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها[٣].

ج ـ جعل من التصوف علماً أخلاقياً عملياً: فقد نقله من مجرد الذوق والتحليق والشطح والتهويل إلى علم أخلاقي عملي يعالج

(١) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ١٣٤.
(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٧).

أمراض القلوب ، وآفات النفوس ، ويزكيها بمكارم الأخلاق ، ومن نظر إلى الإحياء ، عرف أن لبابه وغايته في نصفه الأخير ، وهو يتكون من ربعين: ربع (المهلكات) ، وربع (المنجيات) ، وكل من هذه وتلك عشرة كاملة ، وكلها تدور حول (الأخلاق) ، فهو ـ كما ذكر في مقدمة الكتاب ـ يذكر في (المهلكات) كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته ، وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه ، ويذكر في (المنجيات) كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين[١] ، كما أخذ عليهم من الناحية العلمية عدم دقتهم في تعريفاتهم لأعمال القلوب ، لغلبة أحوالهم الذاتية والآنية عليهم ، ومن تتبع الإحياء وغيره من كتب الغزالي ، بإنصاف ، وجد أنه حاول كبح جماح القوم ، والوقوف بهم عند الحدود والحواجز الشرعية ، وضبط أقوالهم وأعمالهم ، بتقييد مطلقها ، وتحديد مبهمها ، وإعطائها معنى مقبولاً ، ونجح في ذلك إلى حد بعيد[٢] .

د ـ تصحيح مفهوم الزهد: الزهد أصل كبير من أصول التصوف ، نتج عنه: الإعراض عن الدنيا ، وهو المسلك الذي يجاهد الصوفية نفوسهم من أجله كمرحلة أولى من طريقهم، ولكن بعضهم بالغ في هذا، بل وعلى حد تعبير الغزالي: أضلهم الشيطان في الإعراض عنها[٣] .

---

(١) الإحياء (٣/١) ، الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٢٣ .

(٢) الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٢٤ .

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٣٠) .

وقد ساق لنا نموذجاً من هذا الإعراض ، وبين خطأهم ، ثم بين لنا السلوك الصحيح في هذا الموضوع ، بقوله: . .وإنما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو: أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا: فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولا يتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل، ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا ، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده:

فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ من اللصوص، والحر والبرد. ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن ، أقبل على الله تعالى بكنه همته ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر. وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ، ومراقباً لها، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية ، وهم الصحابة ، وقد كانوا على النهج القصد ، وعلى السبيل الواضح. . ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا ، بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم من الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى. . . والله أعلم[1].

والخلاصة: أنه مما لا شك فيه أن أثر الغزالي كان كبيراً على

---

(١) المصدر السابق نفسه.

التصوف ، إذ أراده تصوفاً سنياً ، على طريقة الجنيد ، وقد أفلح إلى حد كبير في الإصلاح في هذا الميدان ولا يمكن تقدير ذلك إلا بالمقارنة بين ما كان عليه التصوف قبل الغزالي وما آل إليه بعده[١] ، ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالي ، ثم كيف صار بعده ؛ عرف فضل الغزالي على التصوف وأهله ، وما ترك فيه من أثر واضح ، يشهد به المتخصصون في علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية ، وهذا ما اعترف به وقرره الذين عنوا بدراسة التصوف ورجاله وتاريخه[٢] ، ومهما يكن من أمر في هذا الباب الخطير ، فالغزالي إمام كبير ، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ[٣] .

سادساً : دور أبي حامد الغزالي في الإصلاح :

١ ـ منهج الغزالي في الإصلاح :

ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني ، أن القواعد التي قام عليها منهج الغزالي في الإصلاح والتجديد ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى : إن الأساس في وجود الأمة المسلمة هو إخراجها لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله ، وحين قعد المسلمون عن تبليغ الرسالة امتلأت الأرض بالفتنة والفساد الكبير ، وأصبح المسلمون وغيرهم ضحايا هذا القعود .

القاعدة الثانية : وتربط القاعدة الثانية بالأولى ارتباطاً متلاحماً ،

---

(١) الغزالي ، للشامي ، ص ١٤٠ .
(٢) الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٢٤ .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٣٩) .

فما دام المسلمون مسؤولين عن حمل رسالة الإصلاح إلى العالم ، وما داموا قاعدين عن حمل هذه الرسالة ، فإنه من الواجب أن يجري البحث في أسباب هذا القعود من داخل المسلمين أنفسهم .

القاعدة الثالثة: فقد جاءت مكملة للقاعدة الثانية ، فما دامت الحاجة ماسة إلى تلمس أسباب القعود ، فإن الغاية من هذا التلمس يجب أن تستهدف التشخيص ، وتقديم العلاج لا مجرد تواترات (سلبية) تقوم على التلاوم وتبادل الاتهام[١] .

٢ ـ صفات منهج الغزالي في الإصلاح:

تميز منهج الغزالي بصفات عدة ؛ منها :

الصفة الأولى: خلو كتاباته من تحريض المسلمين على جهاد الصليبيين ، وخلوها من التنديد بوحشيتهم ، وجرائمهم التي كانوا يقترفونها في أطراف العالم الإسلامي .

الصفة الثانية: هي اعتماد النقد الذاتي ، ولذلك لم يلجأ إلى تلمس التبريرات ، وإلقاء المسؤولية على القوى المهاجمة التي جذبتها عوامل الضعف ، وقابلية الهزيمة من الخارج ، وهذا منهج في البحث يتفق مع المبدأ الإسلامي القائل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠] ، فكان الغزالي يحاول أن يعالج قابلية الهزيمة ، فالمشكلة حسب تصوره: في فساد المحتويات الفكرية والنفسية عند المسلمين في أمور العقيدة والاجتماع ،

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، ص ١٠٦ .

وما سوى ذلك هي مضاعفات تزول بزوال المرض الأساسي[(١)].

الصفة الثالثة: التي اتصف بها منهج الغزالي في الإصلاح هي انطلاقه من منطلق إسلامي أصيل، فاهتم بجانب الإصلاح الفكري والنفسي. وهذا مبدأ قرآني واضح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وبدأ الغزالي بخاصة نفسه أولاً، ثم أخذ بتغيير ما بأنفس الآخرين، واستمر أصحابه وتلامذته في تطبيق هذا المنهاج[(٢)]، فساهمت هذه الجهود مع جهود أخرى في ظهور جيل نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي كما سنرى في مكانة.

الصفة الرابعة: إن الغزالي لم يعالج قضايا المسلمين باعتبارهم قومية منفصلة تصارع قوميات أخرى، وإنما باعتبار هذه القضايا بعض مضاعفات قعود المسلمين وعجزهم عن حمل واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٣)].

٣ ـ تشخيص الغزالي لأمراض المجتمع الإسلامي:

أ ـ فساد رسالة العلماء: ركز الغزالي في مواقع جمّة على نقد العلماء المنتسبين إلى الدين، وهم في الحقيقة علماء الدنيا، وهو يحملهم مسؤولية كبيرة في فساد الملوك والحكام، وفساد العوام، ويرى أن الداء العضال فقد الطبيب، والأطباء هم العلماء، وهم

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٠٧.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

أنفسهم مرضوا مرضاً شديداً[١] ، فتحدث عما وقع فيه أهل العلم ورجال الدين من طلب الجاه والرياسة ، ونيل الحظوة عند أهل الحكم والسياسة ، والجدل الفارغ والنقاش الحاد ، والاكتفاء بمسائل الفروع والأحكام ، والانصراف عن علم الآخرة ، وتهذيب النفس ، وحقيقة ما فيه المنتدبون للإصلاح والدعوة من الكلام المزخرف ، واللفظ المُسجع ، والقصص المُلهية ، ورأى عموم الفساد ، وغفلة الناس ، وسكوت العلماء ، وفقدان النذير[٢] .

فالغزالي يرى أن أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المتمرسون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستهواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً ؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى في منطقة الأرض منطمساً ، ولقد خيَّلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغاة ، أو الجدل يتذرَّع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسَّل به الواعظ إلى استدراج العوام إذا لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة ، ما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة ، وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً ،

---

(١) الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ٧٩ .

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١٤) .

فقد أصبح بين الخلق مطوياً ، وصار نسياً منسياً ، ولما كان هذا ثلماً في الدين مُلماً ، وخطباً مُدلهماً ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مُهمّاً لإحياء الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين(١) .

ويعتقد الغزالي أن التبعة الكبرى في هذا الفساد الشامل ، والضَّعف في الدين ، والانحلال في الأخلاق ، تقع على العلماء ، ورجال الدين ، وهم السبب الأول في فساد الأوضاع؛ لأنهم ملح الأمة ، وإذا فسد الملح فما الذي يُصلحه؟ ويتمثل الغزالي ببيت خوطب فيه العلماء :

يــا معشَــر القــرَّاءِ يــا ملــحَ البلــدْ
مــا يصلــحُ الملــحَ إذا الملــحُ فســدْ

ويذكر كيف مرضت قلوب الناس ، واشتدت الغفلة عن المعاد ، ويذكر أسباب ذلك ، فيذكر منها مرض العلماء واعتلالهم ، وهم أطباء القلوب ، فيقول : والثالثة : وهو الداء العضال ، فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً ، وعجزوا عن علاجه . ويقول في موضع آخر : فإن الأطباء هم العلماء ، وقد استولى عليهم المرض ، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه ، فلهذا صار الدّاء عُضالاً ، والمرض مزمناً ، واندرس هذا العلم ، وأنكر بالكلية طبُّ القلوب ، وأنكر مرضها ، وأقبل الخلق

(١) إحياء علوم الدين (١/٣) ، مطبعة الحلبي .

على حب الدنيا ، وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها مُراءاة[١] .

ويردُّ الغزالي فساد الملوك والأمراء إلى ضعف العلماء وإهمالهم لواجبهم يقول: بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك ، خوفاً من إنكارهم[٢] ، ويلوم الغزالي العلماء على تقاعدهم عن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة الحق عند سلطان جائر ، ويعلل ذلك بوقوع العلماء في شباك الأمراء ، وحبهم للدنيا وطلبهم للجاه[٣] ، ولاحظ الغزالي ـ وقد أمضى مدة طويلة في التدريس والإفتاء ، وعاش بين العلماء وخبر سيرتهم ـ أنه قد شغل الناس بالجُزئيات الفقهية ، والمسائل الخلافية ، ووقع الاكتفاء بعلم الفقه والفتيا ، وانصرف بذلك العلماء وطلبة العلم عن العلوم النافعة ، والأشغال المفيدة الأخرى ، وشُغلوا عن العلم الذي يُصلحون به نفوسهم ، وينالون به سعادة الدنيا والآخرة[٤] ، وقد ترتب عن فساد رسالة العلماء وانتشار الشكلية الدينية في المجتمع الإسلامي آثار ؛ من أهمها:

ـ البعد عن قضايا المجتمع والاشتغال بقضايا هامشية لا طائل تحتها.

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ٥٤).
(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٣٢).
(٣) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١٧) ، نقلاً عن: إحياء علوم الدين.
(٤) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢١٨).

ـ التعصب المذهبي واختفاء الفضائل العلمية.

ـ تفتيت وحدة الأمة وظهور الجماعات والمذاهب.

ـ انتشار التدين السطحي، والفئات التي مثلته، كفئة العلماء، وفئة أصحاب العبادة والعمل والمغرورون، وفئة المتصوفة، وفئة أرباب المال، وقد فصل الإمام الغزالي في الحديث عن هذه الفئات في كتابه إحياء علوم الدين[١].

ب ـ **انحراف الألفاظ عن مدلولاتها**: وقد فطن الغزالي ـ لذكائه الباهر وتجربته العلمية ـ أن من أسباب الالتباس وانخداع الناس بالمظاهر، وبُعدهم عن الحقائق، هو أنه قد فشا في هذا العصر استعمال كلمات القرآن والحديث في غير محلها، وفي غير معناها الأصيل القديم، وصار يُفهم منها ما لم يكن يفهم في العصر الأول، يعقد في كتاب (الإحياء) فصلاً خاصّاً في بيان ما بُدِّلَ من ألفاظ العلوم، ويقول في مُفتتحِه: اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة، وتبديلها ونقلها، بالأعراض الفاسدة إلى معانٍ غير ما أراده السَّلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة، فهذه أسامي محمودة، والمتصوف بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نُقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١١٣ ـ ١٣٢، أخذ الكثير من الأفكار من إحياء علوم الدين.

تنصر عن مذمّة بمعانيها لشُيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم(١) ، ثم شرح الألفاظ المذكورة:

ـ **فالفقه**: كان يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، فخُصِّص في هذا العصر بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى ، والوقوف على دقائق عِللها ، واستكثار الكلام فيها ، وحفظ المقالات المتعلقة بها.

ـ **العلم**: وكان لفظ العلم يُطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، وتصرَّف فيه أهل الزمان بالتخصيص ، حتى شهروه في الأكثر بما يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها.

ـ **التوحيد**: وكان التوحيد عند الأولين ، وهو أن يرى الإنسان الأمور كُلها من الله عز وجل؛ رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يَرى الخير والشرَّ كله إلا منه جلّ جلاله ، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها ، بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات ، وتأليف الإلزامات ، حتى لقَّب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وتسمَّى المتكلمون العلماء بالتوحيد.

---

(١) الإحياء (١/ ٢٨).

ـ **التذكير**: والتذكير هو الذي عناه الله سبحانه وتعالى ، فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الإيمان يواظبون عليه ، وهو القصص والأشعار ، والشطح والطامات.

ـ **الحكمة**: والحكمة هي التي أثنى الله عز وجل عليها فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فصار اسم الحكيم يُطلق على الطبيب والشاعر والمنجم؛ حتى على الذي يُدحرج القرْعة على أكف السَّوادية في شوارع الطرق[(١)].

وبعد هذه المقارنة بين معاني هذه الألفاظ القديمة ومحلّ استعمالها ، وبيان معانيها المُحدثة ومحل استعمالها ، وبيان التحريف الذي وقع في إطلاق هذه الكلمات وتفسيرها ، يقول: فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس عُلماء السوء بتبدُّل الأسامي ، فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عُرف في العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع ما يُسمى حكماً؛ فإن اسم الحكيم صار يُطلق على الطبيب ، والشاعر ، والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ[(٢)].

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٨ ـ ٣٤) ، رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٢١) ، مفهوم التوكل: الأخذ بالأسباب والتعلق بالله سبحانه وتعالى دون الاعتماد عليها.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (١/ ٢٢٢).

وهكذا يهيب الغزالي بالعلماء ، في قوة وصراحة وشجاعة وإخلاص وعمق وتحليل علمي ، ويثير فيهم الغيرة والشعور ، ويستحثُّهم على الرجوع إلى مركزهم في الأمة ، وهو خلافة الأنبياء والوصاية الدينية والخلقية على المجتمع الإسلامي والحسبة على الحكومة والحكام ، والخواصّ والعوام ، معتقداً بأنهم حجر الزاوية في إصلاح المجتمع ، وبصلاحهم صلاح العالم ، وبفسادهم فساد العالم ، ثم يلتفت إلى السلاطين والأمراء ، لأنهم الركن الثاني في إصلاح النوع الإنساني[١] .

ج ـ **نقد السلاطين الظلمة** : لم يكن نقد الغزالي ولا نصحه موجهاً للجمهور فحسب ولا للعلماء والمتصوفة ونحوهم من الطبقات فحسب ، بل شمل نصحه وتوجيهه السلاطين والوزراء ، الذين بأيديهم أمر المسلمين ، وطالما ذكر أن صلاح الأمة لا يتم إلا بصلاح هاتين الفئتين : أهل العلم والفكر ، وأهل السياسة والسلطة ، فهما الفئتان اللتان إذا صلحتا صلح الناس ، وإذا فسدتا فسد الناس ، وطالما حكى قول بعض السلف : لو كان لي دعوة مستجابة لدعوتها للسلطان ، فإن اللّه يصلح بصلاحه خلقاً كثيراً ، والناس يمنعهم من إسداء النصح وقول الحق المر أمران : الخوف والطمع ، وهو في حياته الجديدة ليس عنده ما يخاف عليه ، وليس عندهم ما يطمع فيه ، وقد خبت في قلبه جمرة الحرص ، وحب المال والجاه ، بعد أن جعل الدنيا طريقاً لسفره لا محلاًّ لإقامته ، واتخذ منها قنطرة يعبرها

---

(١) المصدر السابق نفسه .

ولا يعمرها ، زاره وزير الخليفة أنوشروان في بيته تكريماً له ، وإقراراً بمنزلته وفضله ، وما كان ليحدث من هؤلاء الكبراء إلا لمثل الغزالي ، ولكن أبا حامد قال له: زمانك محسوب عليك ، وأنت كالمستأجر للأمة ، فتوفرك على ذلك أولى من زيارتي(١) ، وقد أدرك الغزالي ببصيرته وثقافته الواسعة أن أول ما نقص من عُرا الإسلام ما يتعلق بالحكم والسياسة ، وأن أبرز ما انحرف فيه الحكم عن صراط الإسلام كان في سياسة المال ، ولهذا شدد النكير على السياسة المالية للسلاطين ، وشدد على العلماء في الدخول عليهم أو مخالطتهم ، أو قبول الهدايا منهم؛ لأنها رشوة على الدين ، ولأن أموالهم جلها سحت(٢) ، إليك آراء الغزالي في هذا المجال:

- تحريم التعامل مع السلاطين الظلمة.
- تحريم التجارة في الأسواق التي بناها السلاطين الظلمة.
- تحريم التعامل مع قضاة السلاطين الظلمة وخدمهم وشرطتهم.
- تحريم الانتفاع بالمرافق والمؤسسات التي بناها السلاطين الظلمة. وقد فصل هذه الأمور في كتابه (إحياء علوم الدين)(٣).

وقد تحدث عن سلاطين عصره فقال: ..فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمحوا في استخدامهم والتكثر بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمُّل بغشيان مجالسهم ،

---

(١) المنتظم ، لابن الجوزي (٩/ ١٧٠).
(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ٨٩.
(٣) المصدر السابق نفسه.

وتكليفهم المواظبة على الدعاء ، والثناء ، والتزكية ، والإطراء في حضورهم ، ومغيبهم ، فلو لم يُذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً وبالتردد في الخدمة ثانياً ، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكبير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحُب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادساً ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعاً ، لم يُنعم عليه بدرهم واحد ، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً ؛ فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يُعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني ، فكيف ما يُعلم أنه حرام ، أو يشك فيه ، فمن استجرأ على أموالهم ، وشبَّه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة بالحدّادين[١] . وقيمة هذه الكلمة الجريئة لا تُعرف إلا في جوِّ الحكومات الشخصية الرهيبة ، التي كانت كلمة واحدة تصدر من عالم ، أو مؤلف في نقد ملك ، أو حاكم تطيح بحياته[٢] .

ولم يقتصر الغزالي على إبداء آرائه في السلاطين الجائرين في مؤلفاته ، بل أبدى رأيه وجهر بالحق والنصيحة أمام الملوك كُلَّما سنحت له فرصة ، وقد قال للسلطان (سنجر بن ملكشاه السَّلجوقي) الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها : أسفاً : إن رقاب المسلمين كادت تنقضُّ بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقضُّ بالأطواق الذهبية[٣] ، وقد كتب إلى أخيه الأكبر محمد بن

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣) .
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٢٤) .
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٢٥) .

ملكشاه ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رسالة ذكَّره فيها بمسؤوليته، وحذَّره من عقاب الله وغضبه ، ولفت نظره إلى إصلاح المملكة[١] . وكتب إلى وزراء المملكة رسائل مستفيضة ، ولفت نظرهم بكل جرأة وصراحة إلى فساد الأوضاع، وجور الحكام وابتزازهم للأموال، وما كان يعانيه الشعب من حيف الأمراء ، وغفلة المسؤولين ، وطمع الموظفين ، وحذَّرهم عقاب الله وبطشه ، وذكرهم بمصير الوزراء السابقين ، والحكام الظالمين ، وحثَّهم على إصلاح الجهاز الإداري ، وتنظيم الحكومة والضرب على يد الظلمة ، ورسائله الفارسية التي وجهها في هذا المعنى إلى الوزراء مثال الشجاعة والصَّدع بالحق ، ومثال لقوة الإنشاء وبلاغة التعبير ، كالتي أرسلها إلى فخر الملك ، ومجير الدين[٢] .

ولم يقتصر الغزالي على بذل النصيحة لملوك عصره ووزرائهم وتوجيههم الديني ، وتحذيرهم من سخط الله ، بل كان يبحث لعلو همته وحرصه على إقامة الدين وإسعاد المسلمين عن دولة فتية تقوم على أساس ديني متين، وفكر سليم ، وقد قامت في عصره دولة نشيطة بريئة من كثير من علل الحكومات الإسلامية التي عاصرها ، وهي دولة المرابطين بالمغرب ، كان على رأسها رجل هو أقوى ملوك المسلمين في عصره وأنشطهم، هو يوسف بن تاشفين، صاحب مراكش، ويحدثنا ابن خلّكان : أن الغزالي قصده لعله يتعاون معه على توجيه الحكومة[٣] .

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) .
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٢٧) .

يقول ابن خلّكان: وبلغني أن الإمام حجة الإسلام، أبا حامد الغزالي تغمده الله تعالى برحمته؛ لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فوصله خبر وفاته، فرجع عن ذلك العزم[١].

د ـ نقده للبدع والمنكرات التي حدثت في المجتمع: لم يكن نقد الغزالي مقتصراً على العلماء والسلاطين والأمراء، بل إنه استعرض المجتمع الإسلامي المعاصر كُلَّه، فذكر ما انتشر فيه من بدع ومنكرات وأوهام ومغالطات، ويدل كتاب (الإحياء) على أنه ـ وإن كان نشأ نشأة علمية، وعاش بين الكتب والتلاميذ ـ كان متصلاً بالمجتمع اتصالاً وثيقاً، وقد درسه دراسة عميقة، وكان واسع الاطلاع على المدنيَّة في عصره، وأساليب الحياة، وأجواء الطبقات.

وإن ما ذكره من أخلاق مختلف الطبقات وعِلَلها ليدل دلالة واضحة على قوة ملاحظته، ودقَّة نظره. وقد عقد في كتابه باباً مستقلاً في المنكرات المألوفة في العادات، والتقاليد أَلِفها الناس، فلا يشعر كل واحد بأنها منكرات دخيلة على الحياة الدينية، وقد دقَّق فيها واستوعبها استيعاباً لا يقدر عليه إلا من عاشر الناس معاشرة طويلة، وخبر الحياة ودرسها دراسة واسعة عميقة، ذكر فيها منكرات المساجد، ومنكرات الأسواق، ومنكرات الشوارع، ومنكرات

(١) وفيات الأعيان، نقلاً عن: رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٢٧).

الحمامات ، ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة[١] .

وخصَّص الغزالي جزءاً من الكتاب بذم الغُرور ، ذكر فيه أصناف المغترين وفرق كل صنف ، ذكر منهم المغترِّين من أهل العلم وفِرَقهم ، والمغترين من المتصوفة ، والمغترين من أرباب الأموال وفرقهم ، وقد ذكر منافذ الشيطان ومداخل النفس في هذه الطبقات وأصنافها ، وذكر من أفكارهم ومزالقهم وعقدهم النفسية ما لا يطَّلع عليها إلا عالم كبير من علماء النفس ، ومصلح اجتماعيٌّ ذكيٌّ له تجارب طويلة ونظر نافذ[٢] .

وقد انتقد العلماء والمشتغلين بالعلم في غُلوّهم في الإكثار من الجزئيات الفقهية ، والخلافيات ، والكلام والجدل ، والتعمق في العلوم الآلية : كالنحو ، واللغة ، والشِّعر ، والغريب ، والانهماك به ، وانتقد الصوفية بالاكتفاء بحفظ أقوال المشائخ وأخبارهم . . . وذكر من التباسات الصوفية ومبالغاتهم شيئاً كثيراً يدل على إنصافه وتدقيقه[٣] ، وقد ذكر عن المغترين من أرباب الأموال طرائف وحقائق تدل على النظر العميق ، والفهم الديني الصحيح ، يقول : ربما يحرصون على إنفاق المال في الحج ، فيحُجُّون مرة أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً[٤] .

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٩٤ ـ ٣٠٠) .
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٢٩) .
(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٥ ـ ٣٥٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٥١) .

ويقول: وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البُخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار وقيام الليل ، وختم القرآن ؛ وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال ، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السَّكنجبين يسكن به الصَّفراء ، ومن قتلته الحية هل يحتاج إلى السكنجين؟ ولذلك قيل لبشر الحافي: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة؟ فقال: المسكين؛ ترك حاله ، ودخل في حال غيره ، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع ، والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدينار ، ومنعه للفقراء[١] ، وقد تحدث الغزالي عن صور كثيرة من الأخطاء والبدع التي وقعت في المجتمع ، واستطاع تصويرها بريشته البارعة ، فصوّر مخايل قسمات وجه ذلك المجتمع ، وجسم دقائقه وتجاعيده ، ويظهر في ذلك كله ذكاؤه ، وسعة اطلاعه ، ودقة ملاحظته وبراعة تصويره ، وسلامة تفكيره[٢].

٤ ـ ميادين الإصلاح عند الغزالي:

لم يكتفِ الغزالي بتشخيص الأدواء التي ضربت المجتمع في زمانه ، وإنما جعل هذا التشخيص مقدمة لاستخلاص ميادين العلاج ،

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٢) ، رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٠).
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣١).

وكذلك يمكن القول أن ميادين الإصلاح عند الغزالي ، اشتملت على الميادين التالية[١] :

أ ـ العمل على إيجاد جيل جديد من العلماء والمربين :

يرى الغزالي أهمية العلماء الربانيين في الإصلاح ، ولذلك خلص إلى وجوب هذا النوع من العلماء وتحديد وظيفتهم وعلاقاتهم بالسلاطين[٢] : فالعلماء هم أطباء الدين عليهم أن يطلبوا مرضى العقول ، والنفوس لعلاجهم؛ لأنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ، ويطلبونهم واحداً واحداً فيرشدونهم . فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . . . ، وهذا فرض عين على العلماء ، وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية ، ومن كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم ، فإن الخلف لا يولدون إلا جهالاً فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع ، والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم ، ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان ، والعلماء أطباء ، والسلاطين قوّام دار المرضى ، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي ، أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيّم ليقيده بالسلاسل

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٣٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٤ .

والأغلال ، ويكفّ شره عن نفسه وعن سائر الناس[١] .

وللعلماء الذين يقومون بوظيفة تطبيب الناس من مرض الدنيا شروط وصفات ، حددها الغزالي فيما يلي :

١ ـ أن لا يطلب العالم الدنيا بعلمه .

٢ ـ أن تكون عناية العالم بتحصيل العلم النافع في الآخرة ، المرغب في الطاعات ، مجتنباً العلوم التي يقل نفعها ، ويكثر فيها الجدل ، والقيل والقال .

٣ ـ أن يكون العالم غير مائل للترف في المطعم والمشرب والملبس والأثاث ، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك .

٤ ـ أن يكون العالم مستقصياً عن السلاطين محترزاً عن مخالطتهم .

٥ ـ أن لا يكون مسارعاً إلى الفُتيا ، بل يحترز في ذلك ما وجد إلى الخلاص سبيلاً .

٦ ـ أن يكون شديد العناية بتوبة اليقين .

٧ ـ أن يكون أكثر بحثه في علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش الشكوك ويثير الشر[٢] .

ولقد أسهب الغزالي في تحديد صفات العلماء المطلوبين لحمل

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٥٠) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٨ ـ ٧٦) .

رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وميز بين علماء الآخرة وبين علماء الدنيا ، أو علماء السوء. وأطنب في التمييز بين أخلاق الطرفين العلمية والاجتماعية ونوع علاقاتهم مع السلاطين والعوام والأغنياء والفقراء ، وميز بين أساليب الطرفين في الإرشاد والوعظ والمناقشة ، كل ذلك في ضوء الوظيفة الأساسية التي حددها الإسلام للعلماء(١) .

ب ـ وضع منهاج جديد للتربية والتعليم :

امتاز المنهاج الذي وضعه الغزالي عن المناهج المعاصرة بأنه تخطّى الجزئية التي أفرزتها المذهبية ، فلم يقتصر ذلك المنهاج على علوم الفقه التي حددها المذهب ، وإنما تكاملت فيه العلوم الدينية كلها كالتوحيد ، والتصوف والفقه ، كذلك تكاملت فيه العلوم الدينية ، والمهن الدنيوية لأن العلوم ـ حسب مفهوم الغزالي ـ كلها إسلامية ، ولكنها تنقسم إلى قسمين : شرعية وغير شرعية ، فالشرعية ما استفيد من الأنبياء ، وغير الشرعية ما أرشد إليها العقل كالطب والحساب ، والعلوم الشرعية فرض كفاية فلو خلا بلد منها سارع إلى الهلاك(٢) . ومن يقتصر على العلوم الدنيوية دون الشرعية يضيع عمره فيما لا ينفعه في الآخرة(٣) .

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٨٥ ـ ٧٦) ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٣٥ .

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٧) .

(٣) أيها الولد ، للغزالي ، ص ٢٢ ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٣٨ .

وتدل مؤلفات الغزالي التي درّسها لطلابه ، أنه قد صنفها لتغطي الميادين الآتية :

ـ **ميدان بناء العقيدة الإسلامية** : والهدف منه تكوين عقيدة واضحة حية تكون بمثابة الإيديولوجية التي تحدد مسار السياسات المختلفة وتوجهها ، وأوضح الكتب التي مثلت ميدان بناء العقيدة هو كتاب (الحكمة من مخلوقات الله عز وجل) ، ومن يطالع الكتاب يخال نفسه أمام طبيب مختص بالتشريح ، أو فلكي عالم بالفضاء. فقد اشتمل على أبواب معنونة بـ (التفكير في خلق السماء وفي هذا العالم) ، و (في حكمة الشمس) ، و (حكمة القمر والكواكب) ، و (حكمة خلق الأرض) ، والبحر ، والماء ، والهواء ، والنار ، والإنسان ، وتشكيل أجسام كل من الإنسان ، والبهائم ، والطيور ، والنحل ، والنبات ، وغير ذلك من المخلوقات. ولقد عرض الغزالي هذه الموضوعات بأسلوب قائم على تشريح الأجسام ، وتحليل عمل الأجرام ، وبيان تناسق وظائف كل عضو إبراز دقة الخليقة وحكمتها[1] .

ـ **ميدان تهذيب النفس والإرادة**: وهدفه الارتقاء بالإنسان عن مستوى الخضوع بالشهوات والأهواء إلى مقام العبودية لله ، حيث يتحرر الفرد من الخضوع للشهوات أو الخوف ، ويتصرف طبقاً لمراد الله سبحانه وتعالى عن قناعة ورضا ، ولتحديد متطلبات هذا الميدان ووسائله وضع الغزالي أبحاثاً مطولة في التحليل النفسي ومراتب تطور

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٣٩ ، نقلاً عن : الحكمة من مخلوقات الله عز وجل ، في مجموعة : الرسائل الفوائد.

النفس وأحوالها والمؤثرات التي تؤثر في السلوك والفكر ، والممارسات التي يجب أن يمر بها المتعلم. ولقد استقى الغزالي مكونات هذا المنهج من القرآن والسنة ، ومصادر تراث السلف ، وأوائل الصوفية التي تتسق مع الكتاب والسنة. ولقد طبق الغزالي هذا المنهج ، في تهذيب النفس على نفسه عندما هجر التدريس في النظامية ، وهجر الأهل والموطن والجاه أحد عشر عاماً ، حتى صفت نفسه ، ثم طبقه على تلاميذ عندما عاد لبلده ليشتغل بتعليم الآخرين وتهذيبهم[١].

ـ **ميدان دراسة العلوم الفقهية**: وما اشتملت عليه من أنظمة ومبادئ تتطلبها المعاملات الجارية والقضايا الحياتية القائمة ، والمتجددة ، ولقد كانت دراسات هذا الميدان متحررة من التقليد المذهبي متصلة اتصالاً مباشراً بالقرآن[٢].

ـ **ميدان الحكمة والإعداد الوظيفي**: ولقد أدرج الغزالي تحت هذا الميدان جميع السياسات والإدارات والمهن التي يحتاجها المجتمع ، وكيفية توزيع الأفراد حسب استعداداتهم وقدراتهم ، وأشار إشارة صريحة إلى أن علوم هذا الميدان لا تقتصر على ما عرفه الإنسان وإنما سيبرز الكثير منها في المستقبل بسبب تطور هذه الحياة وتجدد الحاجات[٣] ، ومن جهود الغزالي في هذا المجال كتاب (التبر

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٣٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

المسبوك في نصيحة الملوك) ، الذي أورد فيه أخباراً تظهر أهمية العدل ، وسياسة السلطان ، وسياسة الوزراء ، مستشهداً بتاريخ الحكومات في فارس والروم ، وبتاريخ الخلفاء . وهذا الكتاب يشكل منطلقات معينة لتحديد مفهوم الإدارة الحكومية كما يتصورها الغزالي[١] .

وتكشف أبحاث الغزالي في هذا الميدان عن اطلاع واسع وخبرات عميقة في ميدان الإدارة والسياسة ، والآثار التي تترتب على حسن الإدارة أو سوئها ، كذلك بحث الغزالي في تقدم العلوم وتجددها ، وفي نظريات التعلم ، وفي التطور الثقافي ، والتطور الذي يصيب المجتمعات عبر الزمان والمكان وغير ذلك من أصول التربية ، سواء منها الاجتماعية ، أو العقائدية أو التربوية[٢] .

ولقد طبق الغزالي هذه الآراء التربوية في مدرسته التي أنشأها ، واستقل بالتدريس بها هو وبعض أصحابه ، وكان لها أكبر الأثر في تخريج أنماط جديدة من الرجال أسهموا فيما بعد في الحركة الإصلاحية إسهاماً فعالاً[٣] ، وأصبح منهاج مدرسة الغزالي نموذجاً احتذته المدارس الخاصة التي نشأت متأثرة بدعوته ، وأهمها المدرسة القادرية في بغداد التي لعبت دوراً رئيسياً[٤] ، في نهوض الأمة ودعم

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٠ .
(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ، ماجد عرسان ، ص ١٥٢ ـ ١٧٤ .
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٤٠ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٦ .

حركة الجهاد في عهد نور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي .

ج ـ إحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ عند الغزالي ـ دوائر بعضها أوسع من بعض :

أولها : أن يبدأ الفرد بنفسه ليضع منها نموذج المؤمن المطلوب : فكن أحد رجلين إما مشغولاً بنفسك ، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك[١] .

وثانيها : أن يعلم أهل بيته .

وثالثها : أن يدعو جيرانه .

ورابعها : أهل محلته .

وخامسها : أهل بلده .

وسادسها : أهل المناطق الحضرية في البلاد عامة .

وسابعها : أهل البوادي .

وثامنها : الإنسانية كلها .

وفي ذلك يقول الغزالي : فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محلته ، ثم إلى أهل بلده ، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ، ثم إلى أهل

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٩) .

البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم. وهكذا إلى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، ولا حرج به على كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً، ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه[١].

على أن الغزالي في هذه الدوائر خصَّ السلاطين ببحث أسماه (باب أمر الأمراء بالمعروف ونهيهم عن المنكر)، وكان الغزالي عنيفاً في تحريض العلماء على الوقوف من الأمراء الآمر الناهي مستهدفاً بذلك إرساء القاعدة التي تؤمن بها، وهي أن (السياسة تدور في فلك العقيدة)، وليس العكس. ولقد حشد في سبيل ذلك الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، وأطنب في سرد قصص علماء السلف مع الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العهد العباسي[٢].

وهكذا في عشرات الأمثلة إلى أن خلص من ذلك كله إلى القول: إن واجب العالم أن يُقَرّع السلطان الظالم، كقوله: يا ظالم! يا من لا يخاف الله، وما يجري مجراه. فذلك أن لا يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يجز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب[٣]. ويكرر الغزالي هذا المعنى في أكثر من موضع: للمحتسب، بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب والقتل إن كان لحسبته تأثير في

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٣٣٦).
(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٢.
(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٣٣٧).

رفع المنكر ، أو في كسر جاه الفاسق ، وفي تقوية قلب أهل الدين[١] .

ولقد اعتبر الغزالي أن المسلمين مسؤولين عن النهوض لمواجهة المنكر والأمر بالمعروف ، وأن التقاعس ذنب ومعصية ، ومما قاله في هذا المجال : اعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خالياً من هذا الزمان من منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف . فأكثر الناس جاهلون أحكام الشرع في شروط الصلاة في البلاد ، فكيف في القرى والبوادي ، ومنهم الأعراب ، والأكراد ، والتركمانية ، وسائر أصناف الخلق . وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم ، وكذا في كل قرية ، وواجب كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ، ومن العرب والأكراد وغيرهم . ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله ، ولا يأكل من أطعمتهم ، فإن أكثرها مغصوب[٢] .

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراحل : أولها : التعريف بالتعليم، وثانيها : الوعظ، وثالثها : الزجر، ورابعها : المنع بالقهر[٣] .

د ـ نقد السلاطين الظلمة :

اعتبر الغزالي السلاطين والأمراء في عصره ظلمة متعدين لحدود

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٣١٦) ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٤٣ .

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٣١٦) .

(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٤٣ .

الله ، يحرم على العلماء المخلصين الاختلاط بهم أو التعامل معهم حتى يفيئوا إلى شرع الله[١] . وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى .

هـ ـ محاربة المادية الجارفة والسلبية الدينية ، وتصحيح التصور السائد عن الدنيا والآخرة :

عالج الغزالي المادية والسلبية الدينية اللتين جرفتا العالم الإسلامي في زمانه بروح الفقيه بأمر الدنيا والآخرة ، لذلك لجأ إلى الأسلوب الهادئ التحليلي الذي يخاطب العقل ويستهدف الإقناع ، وتجنب لهجة الخطيب الواعظ الذي تشاغله ظواهر الأمور ، وأعراض المرض الثانوية فيجنح إلى إثارة العواطف ودغدغة المشاعر ، . .وقد عمل الغزالي على تبصير الناس بحقيقة الدنيا ، والصورة التي يجب أن يكون عليها الإنسان [٢]، وحث الناس على الاقتداء بعهد النبوة وجيل الصحابة في حل هذه الإشكاليات من مادية جارفة ، وتصور مغلوط عن الدنيا والآخرة[٣] .

و ـ الدعوة للعدالة الاجتماعية :

ركز الغزالي على الدعوة للعدالة الاجتماعية بالقدر الذي ركز على أمور العقيدة والدعوة للإصلاح . وأساس آرائه في هذا المجال أن : المال آلة صبها الله في أيدي عباده؛ لتكون آلة لدفع حاجاتهم ووسيلة ليتفرغوا لطاعته . فمنهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه في الخطر ،

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٧ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٤ ـ ١٥٦ .

ومنهم من حماه وأحبه وفرغه لعبادته وساق إليه حاجته على أيدي الأغنياء ولذلك عليه أن يأخذ بقدر الحاجة(١). وقد فصل الغزالي في أنماط الحياة الاجتماعية التي تحقق العدالة الاجتماعية المطلوبة ، فقد صنف كتاباً (في آداب الكسب والمعاش) ، ضمنه آراءه في الحث على العمل وتبيان فضيلته ، والبيع وأركانه وشروطه ، وسائر مظاهر المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية(٢) ، كذلك وضع كتاب (الحلال والحرام) في الإحياء ، وأراد منه تحديد أنماط الحياة الاجتماعية ، وكيف ينقي المجتمع من العادات المخالفة للإسلام في أساليب المعيشة والتكامل (٣)، ومحاربة الاحتكار والكنز ، لأن: الاحتكار ظلم في المعاملة ، وبائع الطعام يدَّخر الطعام وينتظر غلاء الأسعار ، هو ظلم عام وصاحبه مذموم في الشرع يبرأ منه الله تعالى(٤) ، وأفرد الغزالي كتاباً خاصاً في (حقوق الأخوة والصحبة)(٥) فذكر أن هناك حقّاً في المال وحقّاً في الإعانة بالنفس. ولقد فسّر قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨]. أي: خلطاء من الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض(٦). وكان الغزالي يرى: أن في المال حق سوى الزكاة: لذلك يجب على الأغنياء مهما

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٢ ـ ٨٩).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٨٩ ـ ١٣٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٧٤).
(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٧٠ ـ ١٩٠).
(٦) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٧١).

وجدوا الفقير في حاجة أن يزيلوا حاجتهم. ومهما أرهقت الفقير حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع المسلم[١].

ز ـ محاربة التيارات الفكرية المنحرفة:

لم يغفل الغزالي التيارات الفكرية المضادة التي استهدفت العقيدة الإسلامية من أصولها، والتي تمثلت بتيارين هما: الباطنية والفلاسفة، وقد بينا موقف الغزالي من كليهما، وفي مجابهته لهذين التيارين لم يلجأ الغزالي إلى الشتائم والقذف، وإنما اعتمد الأسلوب العلمي القائم على الدراسة والاطلاع اطلاعاً يتفوق على أصحاب الفكر نفسه[٢]، ولقد ركز الغزالي في تفنيده لهذين التيارين على الأصول الأساسية لكل منهما، وبذلك اقتلعهما من جذورهما حتى آل أمرهما إلى البوار والانحسار، ولنا أن نقدر للغزالي هذه الجرأة الفكرية خصوصاً إذا تذكرنا الإرهاب الفكري الذي أشاعته الباطنية، وهي تغتال كل معارض، أو منتقد حتى سقط نتيجة لهذا الإرهاب مئات العلماء والأعيان[٣]. ولقد ترتب على جهود الغزالي انحسار للتيارات الفكرية المنحرفة التي مثلها الباطنية والفلاسفة، وكسدت سوقهما بين الجماهير وآل أمرهما فيما بعد إلى البوار والسقوط[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢١٥).
(٢) المنقذ من الضلال، ص ٦ ـ ٩.
(٣) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

ح ـ الإصلاح في ميدان الفكر :

اجتهد الغزالي في إيقاظ الوعي في المجتمع الإسلامي وذلك بتحرير العقل من رق التقليد ، والعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة من كتاب وسنة ، والتأكيد على النظرة الكلية الشاملة للمنهج الإسلامي[١] ، وإليك شيئاً من التفصيل :

ـ **دور العقل** : قرّر الغزالي بأنه لا تعارض بين العقل والشرع ، وفي ذلك يقول : فلا غنى بالعقل عن السماع ، ولا غنى بالسماع عن العقل ، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، كن جامعاً بين الأصلين ، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية[٢] . ثم يقرر بناء على هذا عدم تعارض العلوم العقلية مع العلوم الشرعية ، فيقول : وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن وهو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه ، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض في الدين ، فيتحير به ، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين ، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدين وهيهات[٣] .

---

(١) الإمام الغزالي ، صالح الشامي ، ص ١٩٧ .

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٧) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

ـ **رفض التقليد**: يرى الغزالي ـ بعد أن حدد مصدر التلقي ـ أن العالم ينبغي أن لا يكون مقلداً. ويشرح لنا ذلك عندما تحدث عن صفات علماء الآخرة ، فيقول: ومنها يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره ، وإنما المقلَّد[١] ، صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله. وإنما يقلَّد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من حيث أن فعلهم يدل على سماعه من رسول الله ﷺ ، ثم إن العالم عليه أن يعمل عقله في تفهم أسرار أقواله ﷺ وأفعاله ، لأنها لا تخلو عن أسرار ، واكتشاف ذلك هو مهمة العالم. . ، قال: ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول ، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره ، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله ، وفعله لا بد وأن يكون لسر فيه ، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال ، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاءً للعلم ولا يكون عالماً. ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غيراطلاع على الحكم والأسرار . . لذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من أحد إلا يؤخذ من عمله ويترك إلا رسول الله ﷺ[٢]. وينبغي للعالم أن يعرف الحق ، وبه يعرف الرجال ، وإلى هذا يوجهه الغزالي: فاعلم أن من عرف الحق

---

(١) المقصود بالتقليد هنا: الاتباع.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٧٨).

بالرجال ، حار في متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرفه أهله إن كنت سالكاً طريق الحق[١] .

ويتحدث الغزالي عن الحجب التي تحول دون الفهم فيذكر منها التقليد ، فيقول: ومنها: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه ، وثبت في نفسه التعصب له ، بمجرد الاتباع للمسموع ، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بُعد ، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال: كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله[٢] .

وتحدث الغزالي عن التقليد ، وبيَّن أن النظر ليس حفظ الدليل ، وإنما هو البحث وإعمال الفكر للوصول إلى الدليل الذي به تكون قناعة العقل ، وبهذا المنطق يدعو الغزالي إلى تحرر العقل من رقِّ التقليد ، وذلك بإعمال عقولهم وعندها يمكنهم أن يؤدوا دورهم في أداء واجبهم ولعل الدافع للغزالي إلى هذا الموقف من التقليد ، إنما كان بفعل ما رآه من جمود علماء عصره على مذاهب أئمتهم ـ سواء أكان ذلك في الفقه أو الاعتقاد ـ وتعطيل عقولهم ، بحيث

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٨٤).

لا يخالفونهم حتى ولو كان الدليل مؤيداً لغير ما ذهبوا إليه[١].

ـ **الدعوة إلى الكتاب والسنة**: قال الغزالي في رسالته (أيها الولد): اعلم أن الطاعة والعبادة، متابعة للشرع في الأوامر والنواهي، بالقول والفعل. يعني: كل ما تقول وتفعل، وتترك قوله وفعله، يكون باقتداء بالشرع، وقال: أيها الولد: ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء بالشرع ضلالة[٢]، ويقول في (ميزان العمل): اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له، العلامة الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، وإيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها[٣].

ـ **الالتزام بمنهج السلف**: ويؤكد الغزالي على الحرص على معرفة سيرة الصحابة والتزام نهجهم: فتقليد الصحابة رضي الله عنهم إنما كان من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ[٤]. فالمقلد لهم إنما هو ـ في الحقيقة ـ متبع للرسول ﷺ. وبهذا كان للصحابة، ميزة على غيرهم من الناس، فالغزالي ينصح من أراد التقليد أن يلتزم بهم، فيقول: وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات

---

(١) الإمام الغزالي، للشامي، ص ٢٠٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٦.
(٣) الغزالي، للشرباصي، ص ١٦٤.
(٤) إحياء علوم الدين(١/ ٧٨).

الفضل بين الناس ، فلا تغفل عن الصحابة وعلو مناصبهم ، فقد أجمع على تقدمهم ، وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ، ولا يشق غبارهم[(١)] ، ولذا ينبغي أن يكون الصحابة هم المقياس الذي يقاس به العلماء ، فمن كان أشبه بهم فهو الأقرب إلى منهج الحق وطريق السلف ، واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم للحق ، أشبههم بالصحابة ، وأعرفهم بطريق السلف ، فمنهم أخذ الدين[(٢)] . . .

وبعد أن عرَّف بالعلم المحمود والعلم المذموم ، يقول: وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث[(٣)] . وإن كان الأمر كذلك فينبغي عدم الاغترار بما أحدث ولو أجمع عليه الناس ، وينبغي البحث عما كان عليه الصحابة. وتلك صفة من صفات علماء الآخرة: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور ، وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرَّنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم. وليكن حريصاً على التفتيش على أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم[(٤)] . ويؤكد الغزالي على هذا الأمر ، لما يترتب عليه من انحراف في الأمة ، وتطابق أكثر الناس على أمر لا يعني صوابه ويبرهن

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٨).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٧٩).

ببرهان واقعي ، وهو أن صنعة الكلام التي تواضع الناس عليها . . لم تكن في السلف[١] ، فيقول : . . ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه ، وعلى تضخيمه وتعظيمه ، لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله ﷺ ، عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم ، كلهم علماء بالله ، أثنى عليهم رسول الله ﷺ ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام[٢] .

فهذه صيحة الغزالي التي دعا فيها إلى إعمال العقل ، ونبذ التقليد والتزام منهج السلف ، هي حلقة من سلسلة صيحات دوى بها المجتمع الإسلامي من قبل رجال الإصلاح في كل عصر[٣] ، وقد كانت دعوة الغزالي في أواخر القرن الخامس الهجري قد أثرت تأثير كبيراً في عصره والذي بعده .

سابعاً : الغزالي وعلم الحديث :

من أهم ما أخذ على الغزالي تقصيره في علم الحديث ، وإن شئنا الدقة قلنا : في علوم الحديث ، وقد رأينا ابن الجوزي يصفه بأنه في الحديث (حاطب ليل) ، أي : يأخذ كل ما وجده دون تمحيص ولا انتقاء ، ويرجع هذا إلى أن المدرسة التي نشأ فيها الغزالي ، وتكونت في حلقاتها شخصته العلمية ـ مدرسة إمام الحرمين الخاصة ـ كان يغلب عليها الطابع العقلي الجدلي ، وكان أهم ما يدرس فيها

(١) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٢٠٨ .
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٣) .
(٣) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ٢٠٩ .

علوم الكلام والأصول والفقه والمنطق والجدل ، ولم تكن لها عناية كافية بالحديث وعلومه ، وقلما يسلم المرء من تأثير بيئته ، وقد عيب على شيخه إمام الحرمين بعض ما عيب عليه في ذلك ، ولكن الغزالي زاد على أستاذه في هذا كثيراً ، لأن الموضوعات التي عالجها ـ في التصوف والسلوك ـ تتسع للضعيف من الحديث أكثر مما يتسع الفقه الذي يتعلق بالأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، ومثل ذلك علم (الأصوليين): أصول الدين ، وأصول الفقه ، وهي التي اشتهر بها شيخه[١]. ومن الإنصاف أن نبين أن الغزالي لم يكن هو وحده الذي سقط في أحابيل الأحاديث الواهية والموضوعة ، فقد سقط في ذلك المتصوفة من قبله ، وهو أخذ ما في كتبهم وأبقاه في كتبه ، والمتصوفة معروفون بالتساهل في ذلك؛ لأن مجالهم (الرقائق)[٢] ، بل إن الفقهاء لم ينجوا من الوقوع فيما وقع فيه الصوفية ، فكثيراً ما ذكروا في كتبهم أحاديث معلقة غير مسندة ولا ثابتة ، وكتب التفسير حشيت بما لا يصح ولا يثبت من الحديث والإسرائيليات[٣]. والذي يعرف الصحيح من السقيم والمقبول من المردود ، الخبراء الذين آتاهم الله المعرفة بالحديث رواية ودرايت ، ولم يكن الغزالي منهم بحكم بيئته العلمية ، وما غلب عليها من ثقافته وهذه نقطة ضعف عند الغزالي وكذلك عند كثير من الصوفية: أنه لم يتعمق في العلوم

---

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، للقرضاوي ، ص ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٧ .

المنقولة من التفسير الأثري ، والحديث ، وآثار السلف التي هي أساس العلوم الشرعية ، وقد اعترف في كتابه (قانون التأويل) بأن بضاعته في علم الحديث مزجاة ، فهذا جعله يستدل بأحاديث ضعيفة ، أو لا أصل لها ، أو موضوعة مختلقة ، كما يغفل عن أحاديث صحيحة ، أو متفق عليها ، في موضوعه ، كان يجب أن يذكرها ، وربما لو عرفها لغيرت من مسار تفكيره[١] .

وقد ذكر ابن تيمية أن الغزالي في أواخر عمره قطع بأن كلام الفلاسفة لا يفيد علماً ولا يقيناً ، بل وكذلك قطع في كلام المتكلمين[٢] ، قال: وآخر ما اشتغل به النظر في صحيح البخاري ومسلم ، ومات وهو مشتغل بذلك [٣] .

وقد اعتذر مجموعة من العلماء عن الغزالي عن استناده للأحاديث الضعيفة ، وخاصة في الإحياء بأن الكتاب في الرقائق ، والترغيب ، وفضائل الأعمال ، والعلماء أجازوا رواية الضعيف في هذا المجال ، وممن اعتذر بذلك للغزالي ابن كثير ، حيث قال عن الإحياء: وهو كتاب عجيب ، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات ، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف ، وأعمال القلوب ، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب ، ومنكرات ، وموضوعات ، كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام ، فالكتاب الموضوع

---

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٣٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٨ .
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢١٤) .

للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمراً من غيره[1].

ومما ينبغي ذكره هنا أن الحافظ زين الدين العراقي ، قد خدم الكتاب خدمة جليلة بتخريجه الموجز لأحاديثه المطبوع معه في حاشيته ، والمسمى (المغني عن حمل الأسفار ، بتخريج ما في الإحياء من الأحاديث والأخبار) فعلى كل قارئ للإحياء يجب مراجعة تخريج العراقي ليعرف منه درجة الحديث ، وإن كان فيه ما يتعقب ، ولكنه مهم ونافع على كل حال[2].

ثامناً: كتاب إحياء علوم الدين:

كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، من الكتب التي تباينت فيها الأنظار ، فمن مادح له مطلقاً ساكت عن طوامه ، إلى قادح فيه مطلقاً ، ساكت عن محاسنه ، والأئمة الراسخون في العلم توسطوا فيه فأعطوه حقه من المدح والقدح ، وأنزلوه منزلته التي يستحقها بدون غلو أو جفاء[3] ، قال ابن تيمية في معرض تقويمه لكتابي: (إحياء علوم الدين) ، و(قوت القلوب) لأبي طالب المكي: أمّا كتاب قوت القلوب وكتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر ، والشكر ، والحب ، والتوكل ، والتوحيد ونحو ذلك ، وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر ، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية من أبي حامد الغزالي ، وكلامه أسدُّ وأجود تحقيقاً ، وأبعد

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢١٤).

(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٤٣.

(٣) منهج أهل السنة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم ، للصويات ، ص ١٤٣.

عن البدعة ، مع أنَّ في (قوت القلوب) : أحاديث ضعيفة وموضوعة ، وأشياء كثيرة مردودة .

وأمّا ما في الإحياء من الكلام في المهلكات مثل : الكلام على الكبر ، والعُجب ، والرياء ، والحسد ، ونحو ذلك ، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في (الرعاية) ، ومنه ما هو مردود ، ومنه ما هو متنازع فيه ، والإحياء فيه فوائد كثيرة لكن فيه مواد مذمومة ، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوّاً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين ، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا : مرضه الشفاء يعني : شفاء ابن سينا في الفلسفة ، وفيه أحاديث وآثار ضعيفة ، بل موضوعة كثيرة ، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وتُرّهاتهم وفيه مع ذلك من كلام مشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنّة ، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنَّة ، ما هو أكثر ممّا يُرد منه فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه[1] .

وقال أيضاً : . . والغزالي في كتابه مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في الشفا وغيره ، ورسائل إخوان الصفا ، وكلام أبي حيان التوحيدي ، وأما المادة المعتزلية في كلامه فقليلة أو معدومة ، كما أن المادة الفلسفية في كلام ابن عقيل قليلة أو معروفة ، وكلامه في الإحياء غالبه جيد ، لكن فيه مواد فاسدة : مادة فلسفية ، ومادة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٥) ، الفتاوى الكبرى (٢/ ١٩٤) .

كلامية ، ومادة من ترهات الصوفية ، ومادة من الأحاديث الموضوعة[١] .

وقال الذهبي : وأما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة وفيه خير كثير ، لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومُنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً ، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن ، وفسّره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً ، ولم يأت نهي عنه ، قال عليه الصلاة والسلام: من رغب عن سنتي ، فليس مني[٢] ، فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله ، وبإدمان النظر في (الصحيحين) ، وسنن النسائي ، ورياض النووي وأذكاره ، تُفلح وتُنجِح[٣] .

وقال الذهبي: الغزالي إمام كبير وما من شرط العالم أنه لا يخطئ[٤]. وقال أيضاً: فرحم الله أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟! ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ ولا تقليد في الأصول[٥] .

وقال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر : وإذا وجد العلماء في كتاب الإحياء مآخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر غير معصوم من

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤ ـ ٥٥) .
(٢) البخاري رقم (٥٠٦٣) ، مسلم رقم (١٤٠١) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه (١٩/ ٣٣٩) .
(٥) المصدر السابق نفسه (١٩/ ٣٤٦) .

الزلل ، وكفى كتاب الإحياء فضلاً وسمو منزلة : أن تكون درر فوائده فوق ما يتناول العد ، وأن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به في كتاب غيره[١] .

وقال الدكتور القرضاوي : وكم أتمنى أن يختصر من الكتاب ـ أعني : الإحياء ـ (منتقى) يُبْقِي على روحه وحرارته ، كما يُبْقِي على فوائده العلمية والتربوية ـ وهي كثيرة ووفيرة ـ ويحذف التجاوزات والمبالغات ، والأحاديث الضعيفة ، أو الشديدة الضعف على الأقل ، وبهذا تقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة[٢] .

وقال العلامة أبو الحسن الندوي : ويدلُّ كتاب الإحياء على مكانته العالية بين علماء الأخلاق ، وقد بحث عن الأخلاق ، ودوافعها ، ومنشئها ، وأصنافها بحثاً دقيقاً عميقاً ، وتكلم في أمراض القلب ، وأسبابها ، وعلاجها كلاماً يجمع بين الحكمة والعلم والتجربة والتربية ، وإنَّ من يقرأ بحثه المستفيض في بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع ، حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة ، ليخضَعُ ، ويقر بذكائه ودراسته للطبيعة البشرية ، وتحليله العلمي وعقله الكبير[٣] ، وقد استحقَّ الغزالي ببحوثه العميقة في الأخلاق ، وبتأليفه العظيم (إحياء علوم الدين) أن يوضع في الصف الأول من علماء الأخلاق ، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين في علم

---

(١) الإمام الغزالي ، للشامي ، ص ١٦٠ .
(٢) الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٥٨ .
(٣) رجال الفكر والدعوة (٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٤) .

الأخلاق ، وعلم النفس ، والمؤرخين لهذا الموضوع .

ويرى الندوي أن كتاب الإحياء كتاب ترغيب وتهذيب وأن من أشدّ أجزاء الكتاب تأثيراً في النفس ، ما يشمل على الترغيب والترهيب ، ويُصوّر الغزالي غرور الدنيا وخلود الآخرة ، والحاجة إلى الإيمان والعمل الصالح وتهذيب النفس ، ويدافع عنها ، ويعتذر كأحسن ما يعتذر صديق محب ، ومحام بارع ، ثم يجيب عن ذلك ويُقيم عليها الحجة كأحسن ما يفعل ذلك قاض نابغة ، ومُشرِّع بصير ، ثم يُرقق القول ويَصف العلاج ، كأحسن ما يفعل طبيب حاذق ، ومُربٍّ عطوف ، ويجيء بالعجب العُجاب ، ويَسحر الألباب ، ويُدمع العيون ، ويُرقق القلوب ، وقد أثَّرت هذه المواعظ الحكيمة الرقيقة في قلوب الألوف ، وأحدثت في حياتهم انقلاباً وتحولاً عظيماً ، ومن شاء فليقرأ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها[١] .

وقد أصبح كتاب الإحياء بذلك كُلّه كتاب إصلاح وتربية ، وكأن المصنف حاول أن يكون هذا الكتاب ـ كمرشد ومرب ـ مغنياً عن غيره ، قائماً مقام المكتبة الإسلامية؛ لذلك جعله يحتوي على العقائد ، والفقه ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الإحسان[٢] . ولكن مما يُلاحظ أن كثيراً ممن يقتصر على مطالعة هذا الكتاب ، أو يكثر من قراءته ويشغف به ، ينشأ عنده غُلوٌّ في الزهد والتقشف ، ومخالفة النفس في المباحات ، والكراهة

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٥٦ ـ ٣٥٨) .
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٢) .

للحياة ، والإكثار من الرياضات والمجاهدات؛ حتى تتأثر بذلك صِحَّته وعقله ، خصوصاً في هذا العصر الذي ضَعُفت فيه القوى والأجسام ، لذلك يَمنعُ بعض المربين الحكماء عن مطالعة هذا الكتاب في بداية الحال ، خصوصاً الذين عندهم تأثُّر قويٌّ وانفعال سريع ، لعل السبب في ذلك أن الغزالي صنَّفه في حالة قد غلب عليه فيها الخوف والهيبة ، وكان متأثراً شديد التأثر ، فجاء كلامه صورة نفسيَّته وتأثره.

وقد جمع فيه أقوالاً كثيرة في الزهد ، وقهر النفس وعصيانها ، لا تخلو من المبالغة والإسراف ، والحق أن السيرة النبوية ـ ويدخل فيها الحديث الصحيح ـ على صاحبها الصلاة والتحية ؛ هي المدرسة الوحيدة التي تربي تلاميذها على الاعتدال الكامل والتوازن الصحيح. وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر[١] ، ويمثل ذلك بعض التمثيل قدوة دينية تجمع بين العلم الراسخ ، والسيرة المستقيمة ، والقلب الحي الفائض قد تشرّب السيرة وتذوق السنة ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحاز اليقين ، ولم يزل ولا يزال الدين يؤخذ من الإحياء ويقوم بالإحياء ، ولم يكن الإنسان في دور من الأدوار غنياً عن القدوة والصحبة[٢].

وعلى ما تُعقّب على الغزالي في الإحياء من إيراد أحاديث ضعيفة بل موضوعة في كثير من الأحيان ، وأشياء من كلام الصوفية الممعِنة

(١) من كلام الإمام مالك ، رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٣)
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٣).

في الغلو ، وهضم النفس وترك المباحات وقد لا يتفق مع أصول الدين ، ومع ما ورد فيه من مواد كلام الفلاسفة . . إلى غير ذلك من مآخذ تعقبها العلامة الحافظ ابن الجوزي[١] وشيخ الإسلام ابن تيمية ، مع اعترافهما بفضل الكتاب ، فإن كتاب الإحياء في مقدمة الكتب الإسلامية ، التي انتفع بها خلائق لا تحصى في كل عصر وجيل ، وأثّرت في النفوس تأثيراً لا يُعرف إلا عن كتب معدودة ، ولا يزال الكتاب الذي يكثر قراؤه والمعجبون به والمتأثرون به في أكثر البلاد ، ولا يزال ثروة زاخرة في الدين ، ومصدراً قوياً من مصادر الإصلاح والتربية[٢] .

وخلاصة القول في كتاب الإحياء : هو من صنع البشر ، ولا يعيبه وجود مآخذ معدودة عليه ، ونضيف إلى ذلك : إن كتاب الإحياء موسوعة علمية ضخمة ، وليس هو من الكتاب الصغير ، ووجود الأخطاء لا يلغي مكانة الكتاب ، وأهم ما انتقد على الكتاب في نقاط :

١ ـ استشهاده بالأحاديث الضعيفة والموضوعة .

٢ ـ وجود بعض الأحكام التي بنيت على هذه الأحاديث .

٣ ـ ذكر كثير من القصص التي تحمل المبالغات في السلوك الصوفي .

---

(١) المنتظم (٩/ ١٦٩ ـ ١٧٠) .
(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٢٣٤) .

٤ ـ الحديث عن الكشف والمكاشفة التي يتحدث عنها في الإحياء[١].

٥ ـ بعض المواضع التي ذكر فيها مواد فلسفية.

قال الدكتور القرضاوي: على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالي ـ بالنسبة إلى التصوف ـ هو قضية (الكشف) أو (المكاشفة) التي يحصل الصوفي على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية، وبعد الترقي في مدارج السالكين ومنازل السائرين، وقد صرح الغزالي أن (علم المكاشفة) مما لا يجوز أن يودع الكتب[٢]، ومهما يكن من أمر فإن الغزالي، كما قال الذهبي: إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ[٣].

تاسعاً: موقف الغزالي من الاحتلال الصليبي:

مع مجيء السلاجقة بدأ الوعي بالجهاد يدبّ من جديد في نفوس المسلمين، ولقد استطاع السلاجقة في الفترة الممتدة من دخولهم بغداد إلى سنة (٤٩٠ هـ) تاريخ بداية الهجمة الصليبية على الشام، استرجاع شمال الشام كله، من أيدي البيزنطيين، بل دخلوا آسية الصغرى وتمكنوا من أسر الإمبراطور البيزنطي في معركة ملاذكرد الشهيرة، وهو أمر يحدث لأول مرّة في تاريخ الحروب الإسلامية

---

(١) الإمام الغزالي، للشامي، ص ١٨١.
(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، للقرضاوي، ص ١٣٩.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٣٩).

البيزنطية ، إلا أنه ابتداء من (٤٩٠ هـ) ستتخذ هذه الحروب منعرجاً جديداً إذ ستتحول إلى حرب صليبية[١] ، وقد احتل الصليبيون عدداً من بلاد الإسلام لا سيما بيت المقدس ، الذي دخلوه غازين ، وأسالوا فيه الدماء أنهاراً ، وقتلوا من أهله نحو ستين ألفاً ، وتفككت الأمة أمام هذه الغارات الوحشية[٢] ، إلا أننا لم نسمع صوتاً للغزالي ، وهو صاحب الكلمة المسموعة ، والصيت المدوي ، والبيان المؤثر ، والحجة البالغة ، ما له لا يتحدث عن الجهاد؟! وما له لا يحرك الجماهير ، كما فعل شيخ الإسلام من بعده ابن تيمية؟! ما سر هذه السلبية، والحق أن هذا موقف محير من أبي حامد - رحمه الله - ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال، وما يجب أن يعمل في زمن الإغارة على أهل الإسلام، وقد سجل حكم الجهاد في مثل هذه الحالة، وأنه فرض عين في كتبه الفقهية، وربما يقال: إن هذه الأحداث الكبيرة إنما برزت وتفاقمت في العالم الإسلامي في نفس الوقت الذي اتجه فيه الغزالي إلى حياة العزلة والتصوف سنة (٤٨٨هـ) وهجر الدنيا بما فيها من صراع البقاء أو صراع الفناء، فكان محور تفكيره حينذاك إنقاذ نفسه من النار ونقلها من المهلكات إلى المنجيات، فقد غزا الصليبيون إنطاكية سنة (٤٩١هـ) ثم معرة النعمان في الشهر الأخير من تلك السنة حتى قالوا : إنهم قتلوا فيها مئة ألف، ثم اجتاحوا البلاد كلها يقتلون ويدمرون، واقتحموا القدس سنة (٤٩٢ هـ) وذبحوا من ذبحوا مما

---

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة ، ص ٧٦.

(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٥٤

يذكره التاريخ ولا ينساه، وكان الغزالي لا يزال في عزلته، إذ لم يفارقها إلا في سنة (٤٩٩ هـ) ولكنه بعد ترك العزلة والعودة إلى حياة الإفادة والتدريس والدعوة لم يبدُ منه ما يدل على عنايته بهذا الأمر، الذي يتعلق بمصير الأمة، وسيادتها[١].

آراء بعض المعاصرين في سكوت الغزالي عن الحروب الصليبية:

١ ـ **الدكتور زكي مبارك**: يعتبر الدكتور زكي مبارك أحد أبرز النقاد المعاصرين الذين كتبوا عن الغزالي، وله كتاب (الأخلاق عند الغزالي) تعرض فيه لمسائل كثيرة عنه، وقد وقف وقفة وجيزة عند الغزالي والحروب الصليبية قال فيها: أتدري لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية؟ لتعرف أنه بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في إعداد الخطب وتحبير الرسائل لحث أهل أوروبة على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي (حجة الإسلام) غارقاً في خلوته، منكباً على أوراده، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد[٢].

٢ ـ **الدكتور عمر فروخ**: أما الدكتور عمر فروخ، فقد التمس العذر في سكوته عما جرى في القدس قائلاً: كان الصوفية يعتقدون بأن الحروب الصليبية كانت عقاباً للمسلمين على ما سلف لهم من الذنوب والمعاصي، ولعل الغزالي قد شارك سائر الصوفية في هذا الاعتقاد[٣].

(١) الغزالي بني مادحيه وناقديه، ص ١٥٦.
(٢) الأخلاق عند الغزالي، ص ٢٥.
(٣) أبو حامد الغزالي والتصوف، دمشقية، ص ٣٥٢.

وغير صحيح تعميم القول بأن الصوفية لا يشاركون في الجهاد، بل مشاركة كثير من الصوفية في حركة الجهاد ضد الصليبيين أثبتته الحقائق التاريخية في عهد السلاجقة، والزنكيين، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين، وفي العصر الحديث فعبد القادر الجزائري الذي قاد حركة الجهاد الأولى ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر من كبار المتصوفة، والسنوسيون في ليبيا: محمد المهدي السنوسي مات مرابطاً في أحد الثغور أثناء قتاله لفرنسا في تشاد، وأحمد الشريف السنوسي وعمر المختار من زعماء حركة الجهاد في ليبيا من الصوفية، كما شارك بعض الصوفية في الجهاد حالياً ضد الغزو الأمريكي للعراق، فالقول بأن الصوفية لا تشترك في الجهاد إطلاقه على العموم غير صحيح. وتحقيق المسألة أن من يقوم بالجهاد من الصوفية هم أتباع التصوف السني والذي يقوم على أصول أهل السنة عقيدة ومنهجاً مع الإكثار من العبادة والذكر والزهد، وقد لا يخلو الأمر من بعض الأخطاء. أما التصوف المنحرف القائم على الاستغاثة بالموتى والغلو في الأشخاص وترويج البدع والتواكل وبث روح الانهزامية فهم عادة مطية للاستعمار والغزاة، ونجد للدكتور فروخ رأياً آخر في كتابه (التصوف في الإسلام)[1] يقول فيه : ألا يعجب القارئ إذا علم أن حجة الإسلام - أبا حامد - الذي وقف بنفسه وعلمه في خدمة الدين لحفظ الإيمان على العامة، شهد القدس تسقط في أيدي الإفرنج

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٢.

الصليبيين وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك ولم يُشر إلى هذا الحادث العظيم؟![1].

٣ ـ **الدكتور يوسف القرضاوي**: حيث قال : والحق أن هذا الموقف محير من أبي حامد ـ رحمه الله ـ ومثله لا يجهل ما يجب أن يقال. . . إلى أن قال : . . ولعل عذر الإمام الجليل أن شغله الشاغل كان الإصلاح من الداخل أولاً، وأن الفساد الداخلي هو الذي يمهد للغزو الخارجي، كما تدل على ذلك أوائل سورة الإسراء، فإن بني إسرائيل كلما أفسدوا في الأرض، سلط عليهم عدوهم، وكلما أحسنوا وأصلحوا ردت لهم الكرة عليهم، لقد وجه أكبر همه إلى إصلاح الفرد، الذي هو نواة المجتمع ، وإصلاح الفرد إنما يكون بإصلاح قلبه وفكره، وبذلك يصلح عمله وسلوكه وتصلح حياته كلها، وهذا هو أساس التغيير الاجتماعي ، وهو ما أرشد إليه القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. ويدخل في ذلك إصلاح الحكام بحسن توجيههم والنصيحة لهم ، والله أعلم بحقيقة عذره[2].

٤ ـ **الدكتور ماجد عرسان الكيلاني**: حيث قال : . . بالنسبة لموضوع الجهاد يلاحظ أن الغزالي تناول محتواه واسمه ضمن موضوع (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ؛ حيث اعتبره في أكثر من موضع أحد أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأمثلة على ذلك

(١) التصوف في الإسلام ، ص ٩.
(٢) الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص ١٥٦.

كثيرة ؛ مثل: قوله : أفلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه. ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر، فكذلك قمع أهل الفساد جائز ؛ لأن الكافر لا بأس بقتله، والمسلم إن قتل فهو شهيد، فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله، والمحتسب المحق إن قتل مظلوماً فهو شهيد ، وكذلك قوله : الشرط الخامس (من شروط المحتسب) : كونه قادراً ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبه إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها. وقال ابن مسعود رضي الله عنه : جاهدوا الكفار بأيديكم ، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا[١] . وكذلك قوله : فنقول : وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر؟ فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع ؛ إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ، ولم يمنعوا من الغزو لا في عصر رسول الله ﷺ ولا بعده[٢]. . . والذي يبدو من معالجة الغزالي للقضايا الاجتماعية المختلفة أن موقفه من الجهاد اتصف بأمرين اثنين :

الأول: إن مفهوم الجهاد عند الغزالي ليس دفاعاً عن أقوام وأوطان وممتلكات، بل هو وسيلة لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٤٤) ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٤٤ .

(٢) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٤٤ ، إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٩).

المنكر التي هي السبب الحقيقي لإخراج الأمة المسلمة إلى الوجود ، ومادام المجتمع الذي عاصره الغزالي قد توقف عن حمل هذه الرسالة وفسح للمنكر أن يشيع فيه ، واستساغت أذواقه هذا المنكر . . . ، وانتهت جماهيره عند الملبس والمأكل والمنكح كما وصفهم المؤرخ أبو شامة، فإن أية دعوة للجهاد العسكري لن تكون ذات فائدة ؛ إلا إذا سبقه جهاد نفسي يبدل ما بأنفس القوم ويجعلهم يتذوقون معنى التضحية بالأنفس والأموال في سبيل الله.

الأمر الثاني: إن الغزالي كان واعياً بمفهوم الجهاد الشامل والمراحل التي تطبق فيها مظاهره. فالجهاد له مظاهر ثلاث هي : الجهاد التربوي ، والجهاد التنظيمي، والجهاد العسكري. والفهم الصائب لهذه المظاهر الثلاثة وحسن ترتيبها وتوقيتها هو أحد مظاهر الحكمة التي جعلها الله أولى طرق الدعوة إليه حين قال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل : ١٢٥]. فالدعوة إلى الجهاد العسكري وندب العامة له في أمة متوفاة يدور فيها (الأفكار والأشخاص) في فلك (الأشياء) ستكون بمثابة استنفار الأموات الذين في القبور[١]. إلى أن قال : . . . لعل هذا الاستعراض يتضمن الجواب عن الاعتراض الذي يتهم الغزالي بالعزلة عن قضايا العالم الإسلامي . . ولعل الميادين الأربعة التالية التي تضمنتها ميادين الإصلاح عند الغزالي دليل واضح على أن الرجل اختار البدء بالجهاد التربوي في أمة ضربها الخور والتثاقل، وشاع فيها

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، ص ١٤٦ .

التنكر للقيم الإسلامية تمهيداً لإخراج (الحكماء السياسيين والعسكريين) الذين يقودون الجهاد التنظيمي والعسكري الذي يرفع لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، وهذه الميادين هي : نقد السلاطين الظلمة ومحاربة المادية الجارفة، والدعوة للعدالة الاجتماعية، ومحاربة التيارات الفكرية المنحرفة[١].

عاشراً: كتاب إلجام العوام في آخر عمره:

يعتبر كتاب (إلجام العوام عن علم الكلام) من آخر مصنفات الإمام الغزالي على الإطلاق، وفي هذا الكتاب تظهر أمور مهمة في ما وصل إليه الغزالي في مسيرته للبحث عن الحقيقة، ومن هذه الأمور:

أنه انتصر في هذا الكتاب لعقيدة السلف منبهاً على أن الحق هو مذهب السلف، وأن من خالفهم في ذلك هو مبتدع[٢].

أنه نهى عن التأويل أشد النهي، داعياً إلى إثبات صفات الله، وعدم تأويلها بما يؤدي بها إلى التعطيل قائلاً بأن: علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل. إذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١][٣] وقال: الدليل على أن مذهب السلف هو الحق: أن تصنيفه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة والخوض من جهة العوام في التأويل والخوض بهم من جهة العلماء بدعة مذمومة. وكان

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.
(٢) إلجام العوام، ص ٦٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٨، أبو حامد الغزالي والتصوف، ص ٣٦٠.

نقيضه – وهو الكف عن ذلك – سنة محمودة[١]. وذكر بأن: الصحابة والتابعين في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرض لمثل هذه الأمور، بل بالغوا في زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به. فلو كان ذلك من الدين – أو من مدارك الدين – لأقبلوا عليه ليلاً ونهاراً ودعوا إليه أولادهم وأهليهم وتشمَّروا عن ساق الجد في تأسيس أصوله، وشرح قوانينه تشمراً أبلغ من تشمرهم في تمهيد قواعد الفرائض والمواريث، وأضاف قائلاً: فنعلم بالقطع من هذه الأصول أن الحق ما قالوه، والصواب ما رأوه لاسيما وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ وقال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢]. فمن النتائج التي وصل إليها الغزالي في حياته العلمية هي اعتماد مرجعية الصحابة في علمهم وسيرتهم وسلوكهم، ويعتبرهم حجة على من بعدهم، وأنهم معيار لصحة الاعتقاد والسلوك، وهذا صحيح ويعني ضرورة اهتمامنا بمعرفة سيرهم وسلوكهم وعبادتهم وجهادهم، وخصوصاً الخلفاء الراشدين الذين حثنا رسول الله ﷺ على التمسك بسنتهم.

● **شد النكير على المتكلمين**: حيث قال: والدليل على تضرر الخلق به: المشاهدة والعيان والتجربة، وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون، وفشت صناعة الكلام مع نهي العصر الأول من الصحابة

(١) إلجام العوام، ص ٩٦، أبو حامد الغزالي والتصوف، ص ٣٦٠.
(٢) مسلم رقم (١٩٦٧)، البخاري، كتاب الشهادات (٣/ ١٥١).

عن مثل ذلك ، ويدل عليه أيضاً: أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في المحاجّة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم. لا لعجز منهم عن ذلك، فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه، ولخاضوا في تحرير الأدلة خوضاً يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض[١] وأشار إلى مسألة مهمة وهي: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات ، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان ، فما بعد بيان الله بيان[٢] .

● **توسع في النهي عن البدعة والابتداع في مواضع كثيرة من هذا الكتاب**: حيث يقول: وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال عن هذه المعاني يجب زجرهم ومنعهم، وضربهم بالدرة كما كان يفعل عمر رضي الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات، وكما فعله رسول الله ﷺ في الإنكار على قوم رآهم خاضوا في مسألة القدر وسألوا عنه فقال عليه الصلاة والسلام: فبهذا أمرتهم؟ وقال: إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال[٣] . ويضيف قائلاً: ولذلك أقول: يحرم على الوعاظ على رؤوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض في التأويل

(١) إلجام العوام ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(٣) مسلم رقم (٢٦٦٦) بلفظ آخر .

والتفصيل، بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف[١].

حادي عشر: إقبال الغزالي على القرآن الكريم وصحاح الأحاديث:

فقد عرف عنه رحمه الله أنه أقبل في أواخر عمره على الأحاديث الصحاح، فاتخذ لنفسه معلمين يحفظ عليهم الصحيحين، وكان يسمع في آخر حياته صحيح البخاري من أبي سهيل محمد بن عبد الله الحفصي، وسنن أبي داود من القاضي أبي الفتح الحاكمي الطوسي[٢]. وهذا الأمر يلفت النظر إلى ميزة كبيرة في شخصية الغزالي حيث تواضعه في طلب العلم وعدم استكباره في الأخذ على أيدي العلماء وهو في هذه السن والمكانة والعلم، ويحكي تلميذه - عبد الغافر الفارسي - آخر مراحل حياته قائلاً: وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين - البخاري ومسلم - اللذين هما حجة الإسلام. ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله، ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية، واشتغل آخر عمره بسماعها[٣]. وقد كان ابن تيمية رحمه الله ممن يذكّرون بهذه المرحلة الأخيرة التي تعرض لها الغزالي، مكرراً ذلك في غالب كتبه مؤكداً على أن الغزالي مال

---

(١) إلجام العوام، ص ٧٠، هذا إذا سألوا عن الكيفية كقول القائل لمالك: كيف استوى؟

(٢) طبقات السبكي (٤/ ١١٠).

(٣) طبقات السبكي (٤/ ١٠٩ ـ ١١١)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

أخيراً إلى أهل الحديث ومات وصحيح البخاري على صدره[١]، وذكر ابن كثير ترجمة وجيزة عن الغزالي قال في آخرها: ثم عاد إلى بلده طوس فأقام بها وابتنى رباطاً، واتخذ داراً حسناً وغرس فيها بستاناً أنيقاً، وأقبل على تلاوة القرآن، وحفظ الأحاديث الصِّحاح[٢].

وفاته: توفي الإمام الغزالي يوم الإثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة من سنة خمس وخمسمئة هجرية، ودفن بطوس رحمه الله تعالى وقد سأله بعض أصحابه وهو في السِّياق فقال: أوصني فقال له: عليك بالإخلاص، فلم يزل يُكرِّرُها حتى مات، رحمه الله[٣]. قال أخوه أحمد: لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد، وصلى، وقال: عليّ بالكفن، فأخذه وقبّله، وتركه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مدّ رجليه، واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار[٤]، ورثاه الأبيوردي الشاعر المشهور، بأبيات فائية من جملتها:

مضى أعظم مفقودٍ فُجعتُ به
من لا نظيرَ لهُ في النّاسِ يخلفُهُ[٥]

فرحمة الله على الغزالي، فقد قام بجهد كبير في سبيل التنظير لأهل

---

(١) أبو حامد الغزالي والتصوف، ص ٣٦٧.
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٢١٥).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (١/ ٢٨٢).
(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٢١٩).

السنة في العهد السلجوقي ، والذي ساهم بجهاده الفكري والعلمي في تقوية الخلافة العباسية، ومقاومة الخطر الباطني الصاعد آنذاك، وهو الخطر الرئيس الذي كان يتهدد الخلافة، وقد ظل الغزالي طوال حياته ومن خلال مؤلفاته يدعو إلى محاربة الباطنية بكل الوسائل الممكنة ، وقد اقترح على الخليفة في ما اقترحه تعيين قائم بالحق في كل قطر وصقع لمقاومة دعاة المبتدعة(١). لقد كانت الباطنية تشكل خطراً عظيماً على الإسلام ، فهم حسب رأيه: عنصر مقلق للعقيدة من داخلها(٢)، شأنهم شأن الفلاسفة ، شنّ عليهم الغزالي حملة عنيفة(٣)، ولقد قام رحمه الله ـ بجهود إصلاحية ضخمة في إحياء فقه القدوم على الله وتقوية الجانب الروحي، وتهذيب النفوس، وتنوير العقول، وإصلاح النوايا ، ومحاربة الأمراض القلبية ، وإحياء المعاني الإيمانية، وأخلاقيات التضحية والورع، والصبر، والإنابة والاستعانة بالله تعالى، ولقد ساهمت جهوده في توعية الأمة، وتلقف بعض المصلحين الكبار، كعبد القادر الجيلاني شيئاً من منهجه التربوي ، فأقام مدرسة شعبية كبيرة ساهمت في توعية عوام المسلمين، ودعم حركة الجهاد التي قادها نور الدين وصلاح الدين فيما بعد، فالمدارس النظامية، والتي من كبار مدرسيها الإمام الغزالي ساهمت في حركة الإصلاح ، التي تتابعت حلقاتها حتى انتهت بدحر الغزاة الصليبيين ،

---

(١) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة إلى الدولة ، ص ٨١ ـ ٨٢.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٢.
(٣) الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ٨.

واسترجاع الأرض والمقدسات عبر قرنين من الزمن في صراع رهيب، يبين دور علماء أهل السنة في توعية الأمة ، ورص الصفوف ، وكشف الانحراف، وتبيين الحقائق وبذل الغالي والرخيص حتى تكون كلمة الله هي العليا .

❑ ❑ ❑

فهرس المحتويات